٢١٢

HARLEQUIN®

روايات احلام

الإرث الأسود

أيما دارسي

www.elromancia.com
مرمورية

الإرث الأسود

كان اللورد «هاغ دافنبورت» ينتظر وصول مربية جديدة لابنة أخيه الصغيرة، التي تذيقه الأمرّين. لكن من وصل إلى عتبة القصر لم تكن المربية، بل امرأة غريبة، تبحث عن ماضي أم حُرمت منها وهي طفلة...

وحين وقع نظر «ريبيل» على سيد القصر، اتخذت قراراً غريباً... ستقيم مع هذه العائلة المحاطة بالأسرار، رغم رفض الاثنين لها... فهذا اللورد المستبد وهذه الفتاة الشرسة بحاجة إليها... ولكن لماذا هي أيضاً بحاجة إليهما؟

www.elromancia.com

أيمّا دارسي

كانت أيمّا دارسي ممثلة قبل أن تصبح زوجة وأمّاً. ولاحقاً أخذت تهتم بالرسم الزيتي، ولكنها اعترفت بأنها لم تفلح فيه... بعد ذلك جربت الهندسة المعمارية فوضعت تصميماً لمنزلها الواقع في «نيوساوث ويلز». ومؤخراً أصبحت كاتبة روايات رومانسية، وبحسب ما اعترفت: «أن كتابة الروايات العاطفية من أصعب الأعمال وأشدّها بعثاً للتحدي».

www.elromancia.com

١ ـ طفلة متمردة

ـ هذا هو المكان إذن... حيث ابتدأ كل شيء! دافْينبورت هول!

أوقفت ريبيل دراجتها البخارية المستأجرة في منتصف المدخل المشجّر. نظرت إلى المبنى الضخم الذي بدا متيناً غير قابل للخراب، وصامداً إزاء تدمير البشر وعوامل الزمن. كان عمر «دافْينبورت هول» أكثر من مئتي عام؛ وذلك حين وضع أول رجل إنكليزي قدمه في أستراليا عام ١٧٧٠. وشعرت ريبيل، لهذه الفكرة، بوحشة غريبة.

كم عدد الذين عاشوا هنا طوال تلك السنين؟ لقد أمضت أمها في هذا المكان ستة أشهر، هي بمثابة طرفة عين من عمر دافْينبورت هول!

هل يمكن أن يتذكر أحد تلك الطفلة ذات الخمسة أعوام التي كانت واحداً من بين أربعين يتيماً، لجؤوا إليه احتماء من الغارات على لندن، ثم رُحّلوا فيما بعد إلى أستراليا، بعيداً عن القنابل والصواريخ؟ من غير الممكن أن يتذكر أحد هذا الحدث العابر منذ أربعين عاماً. أما وقد وجدت ريبيل المكان، بعدما صادفتها ظروف مساعدة، فقد أصبح الأمر يستحق المحاولة.

أخبروها في قرية «كومبتون برايز» بأن منزل «دافْينبورت هول» ما

زال ملكاً لأسرة عاشت فيه أجيالاً وأجيالاً. لقد ظل على الدوام مركزاً ريفياً لعدد كبير من أبناء أسرة ستانشورب أصحاب مقاطعة داڤينبورت.

هذه المعلومات الجيدة أنعشت الأمل في وجود من يمكنه أن يتذكر شيئاً عن أولئك الأطفال... وإن لم تجد من يخبرها بالتحديد، فمن المحتمل أن تجد سجلات في المنزل بأسمائهم. على الأقل يمكنها أن ترى الغرف التي أقام فيها أولئك الأيتام.

طوال حياتها، كان هذا المنزل ينعش في خيالها حلماً غير عادي، وقصتها المفضلة قبل النوم في طفولتها الأولى. كان حلماً أكثر منه حقيقة. أما الآن، وقد أصبح هذا المكان المهيب حقيقة ماثلة أمام عينيها، فقد شعرت، فجأة، بدافع قويّ لمعرفة كل شيء عما حدث لأمها هنا.

ما تتذكره عنها قليل جداً، لا شيء سوى ذكريات متقطعة مبهمة عن نفسها يوم كانت مدللة محبوبة. ثم لا شيء... وبعد فترة أمضتها شريدة دون مأوى، امتلأت حياتها بأسرة جايمس التي تبنّتها، وكان لها فيها إخوة وأخوات ووالدان، ولعل وجودهم جميعاً جعل الماضي يفقد أهميته بشكل ما. وما مجيئها الآن لرؤية منزل «داڤينبورت هول» إلا بدافع الفضول فقط. وما إن مَثُل أمامها هذا المكان، ناظراً إليها، حتى أصبح شيئاً لا يقاوم!

أطفأت محرك الدراجة. قد لا تتمكن من إرضاء فضولها عن أمها، غير أن أية معلومة، مهما تكن تافهة، ستكون لديها ذات قيمة بالغة.

نزلت ريبيل عن الدراجة البخارية ثم دفعتها إلى جانب الطريق حيث أسندتها إلى جدار حجري عال يحيط بالمزرعة، ثم خلعت

خوذتها وعلقتها على مقود الدراجة. وفيما كانت تسوّي خصلات شعرها الطويل الكثيف البني اللون، شعرت بالتردد.. ربما كان الأفضل لو أنها اتصلت مسبقاً تليفونياً، وحصلت على موعد.

كانت نيتها، في البداية أن تجول بدراجتها وتلقي نظرة على المكان. ولكن عندما أصبحت هنا، بدت لها فكرة العودة مرة أخرى غير ذات فائدة. والمشكلة أنها لم تكن ترتدي ملابس لائقة، فقد كانت ترتدي ملابس جلدية ملائمة لركوب الدراجة البخارية، وكلفها شراؤها مبلغاً كبيراً من مدخراتها، لكن هذا البنطلون الضيق والسترة الفضفاضة ربما لا يسبغان عليها الصورة التي تؤهلها لدخول «داڤينبورت هول».

لم تجد ريبيل فكرة التأجيل مقبولة، فذلك يكلف وقتاً وجهداً ومالاً. على كل حال ستقابل الخدم فقط. ولم تكن تنقصها القدرة على الإقناع، فالإعلان وعرض الأفكار والضمان هي عملها. والأمر يستحق، حتماً، المحاولة. وإذا فشلت هذه المرة فستحاول اللجوء إلى طريقة أخرى.

على أي حال، فإن مظهرها لا يدل على أنها امرأة رخيصة. شعرها الجعد الكث كان طبيعياً لا دخل للصنعة فيه، وكانت ريبيل تعلم، بالتجربة، أن الناس يعتبرون وجهها جذاباً. لم يكن وجهاً استثنائياً بجماله، وإنما له طابع خاص متفرد.

لا شيء مميز في تقاسيم وجهها. حاجباها مقوسان بانتظام، وأنفها جميل الشكل باستثناء ميل خفيف في نهايته إلى أعلى، فمها مفترٌ قليلاً وكأنه دوماً على أهبة الابتسام، كما أن لديها أسناناً جيدة مستقيمة.

عيناها هما اللتان تميزانها عن غيرها. فيهما جاذبية خاصة،

بلونهما العسلي المتألق، والأهداب الكثيفة التي لا كحل فيها. الزينة الوحيدة التي تستعملها هي حمرة الشفتين، فقد ورثت بشرتها الإنكليزية الرائعة عن أمها، هذه البشرة التي لم تتلفها سنواتها الأربع والعشرون التي أمضتها تحت شمس استراليا.

أما الشيء الوحيد الذي لم يكن يعجب ريبيل في وجهها فهو ذقنها المربّع؛ فقد كانت تفضله مستديراً. وكانت تلك آفة مراهقتها، التي كانت تداريها دوماً بطراز شعرها، لكنها ما لبثت أن نسيت كل ذلك مع مرور الزمن.

بعد أن سوّت شعرها، فتحت سترتها الجلدية مظهرة كنزتها الحمراء القاتمة، ومسحت الغبار عن حذائها الجلدي الأسود بمنديل ورقي، ومن ثم بدأت بصعود الطريق المرصوف بالحصى، مفكرة في أنها ستتمكن إن رفض أهل المنزل استقبالها من الطواف واختلاس النظر حولها، متصورة الأمكنة التي قد تكون أمها لعبت فيها، وتساءلت عما إذا كانت سعيدة أثناء ذلك الوقت القصير الذي أمضته هنا.

استقرت عيناها على الأشجار الضخمة المصطفة على الجانبين. بدت جذوعها الضخمة من عمر المنزل نفسه... لا بد أن أمها سارت على هذا الطريق مرات كثيرة، وربما في مثل هذا الوقت، حيث تتراقص أوراق الشجر وتلتمع تحت أشعة الشمس.

كانت أوراق الشجر رائعة الجمال بخضرتها الخفيفة، المختلفة عن بقية أشجار أستراليا. كل شيء في انكلترا كان مختلفاً، ولأول مرة أدركت ريبيل مبلغ شعور أمها بالضياع والغربة عند وصولها إلى أستراليا، وتسليمها إلى أيدٍ غريبة في بلاد غريبة.

تأوهت ريبيل لتخفف من الانقباض المفاجئ الذي شعرت به في

صدرها، فهي تعرف شعور من يسلمونه إلى رعاية الغرباء. إنه الخوف وعدم الإحساس بالأمان. هزت رأسها قليلاً لكنها لم تستطع التخلص من الشعور بوطأة الزمن وهي تسير تحت هذه الأشجار العتيقة.

في نهاية الطريق وجدت نافورة حجرية ضخمة، تتصاعد منها المياه لتعود فتتساقط مثل شلال أبدي. ووقفت ريبيل تنظر إلى المنزل العريق.

كان مؤلفاً من ثلاث طبقات، معظم جدرانه مغطى بنبات اللبلاب المعترش. وأوحت النوافذ الكبيرة المقسمة إلى أجزاء، باتساع الغرف في الداخل، كما هو معهود في أبنية بهذا الحجم والطراز القديم. وفهمت كيف استطاع هذا البيت أن يستوعب بسهولة أربعين يتيماً، فقاعة واحدة فيه قد تكون كافية لذلك.

تملكتها رعشة خفيفة وهي ترفع نظرها إلى نوافذ الطابق الأعلى. كان الهواء قارساً بالرغم من شمس الأصيل، وهذا ما يسميه الإنكليز صيفاً.. بهذا أخذت ريبيل تفكر ساخرة وهي ترغم نفسها على التقدم ملتفة حول النافورة متجهة نحو الرواق المؤدي إلى الباب الكبير.

بدا الباب حصيناً للغاية، ولكن سرعان ما ذكرت ريبيل نفسها بأن وراءه أناساً عاديين مثلها، لا أحسن ولا أسوأ. كل ما عليها أن تفعله هو أن تجعلهم يتعاطفون معها، ولتصل إلى ذلك الغرض، عليها أن تجتاز اللحظات الأولى التي تشكّل، وحدها، المرحلة الحرجة.

تذكرت ريبيل ما تلقته من تدريب أساسي في مهنتها، وهو أن تقف بعيداً عن الشخص الذي يستقبلها وبهذا تمنحه فرصة شملها بنظراته دون خوف. ثم تبتسم، وتقدم نفسها بلهجة طبيعية ودود..

أخذت تتأمل مقرعة الباب الضخمة للحظات، متسائلة عن مدى

قدرتها على استدعاء أي شخص في هذا المنزل الضخم. لكنها ما لبثت أن رأت زر جرس كهربائي على يسار الباب فضغطت عليه.

مضت دقيقة أو نحوها قبل أن يُفتح الباب، ورسمت ريبيل على فمها ابتسامة عندما ظهرت على العتبة امرأة متوسطة السن ترتدي ثوباً أسود بالغ الأناقة، وتضع على شعرها الذي خطّه الشيب قبعة صغيرة بيضاء، وفي عينيها نظرة سريعة متوترة.. عرفت ريبيل فيها مدبرة المنزل. وعلى الفور، قالت بلهجة مهذبة واثقة:

ـ مساء الخير. اسمي هو ريبيل غريفيث جايمس، وأنا...

فانفجرت المرأة تقول بارتياح: «الحمد لله أنك هنا أخيراً! لقد ابتدأنا نظن أنك لن تأتي أبداً! ماذا كنا سنفعل حينذاك..؟»

ورفعت المرأة عينيها الزرقاوين إلى السماء، فارتبكت ريبيل لحظة لهذا الترحيب غير المنتظر. وسألت غير مصدقة: «أنعرفينني؟»

ـ آه، نعم! الفتاة الأسترالية.

أجابت المرأة بحزم لم يدع مجالاً للشك، وفتحت الباب على اتساعه ثم قادت ريبيل إلى الداخل وهي تقول:

ـ اللورد دافينبورت ينتظرك في غرفة الاستقبال، سآخذك إليه حالاً.

كان الطريق مفتوحاً أمامها، ورغم أنها اشتبهت في أن ثمة خطأ ما، فقد قررت ألا تفصح عن هويتها إلا إلى رب المنزل الذي من شأنه أن يقرر أي شيء بالنسبة لها.

منح ترددها الخفيف مدبرة المنزل مجالاً لتجيل النظر في مظهرها، وبعدما ألقت نظرة جانبية على سترتها الجلدية، تصورت أنها ستغيّر رأيها وأنها لن تدخلها بمثل هذه السرعة. لكن ريبيل قررت التمسك بهذه الفرصة السانحة، فقالت للمرأة وهي ترغمها

على النظر في عينيها:

ـ شكراً، هذا لطف بالغ منك وكفاءة عالية، يا سيدة...

أول درجة في عملية البيع هي معرفة الاسم وتذكُّره جيداً، فالناس يتجاوبون بشكل جيد مع هذا التصرف المهذب. ولقد أصبح هذا التهذيب طبيعة ثانية في ريبيل جعلها تستميل بسرعة أي شخص تتعرف إليه. والتهذيب لا يكلف شيئاً سوى قليل من التفكير، بينما يسرّ الآخرين دوماً.

دهشت المرأة لهذا السؤال، لكن التوتر في ملامحها تحول إلى ابتسامة خفيفة:

ـ اسمي هو السيدة توكينز، سنتعارف جيداً لو مكثت عندنا وقتاً كافياً. هذا إذا تمكنت من إرغام نفسك على البقاء، والله يعلم أن لا أحد نجح في ذلك من قبل، لكنهم يقولون...

وألقت نظرة أخرى على السترة الجلدية السوداء: «إن الاستراليين أصلب عوداً من غيرهم، والبلاد القاسية المناخ تنتج شعباً صلباً. لقد سمعت ذلك في أفلام التلفزيون الوثائقية. لكل منا طبيعته ووسائله.. أليس كذلك؟»

لم تستطع ريبيل أن تفهم شيئاً من سيل هذه الكلمات، ولكن بدا لها أن نوعاً من التطمين هو الجواب المناسب:

ـ حسناً، يمكنني أن أضمن بقائي هنا لساعة على الأقل، يا سيدة توكينز.

دخلت ريبيل وبثقة كاملة إلى الردهة الفسيحة، الشبيهة بالغرفة العادية.

بدا وكأن مدبرة المنزل تفكر في تلك الملحوظة قبل أن تغلق الباب. فقد استدارت إلى ريبيل وفي عينيها نظرة حادة كأنها تريد أن

تقول شيئاً آخر، لكنها ما لبثت أن غيرت رأيها. وتساءلت ريبيل عما إذا كان في القرية من أخبر سكان هذا المنزل بأن امرأة أسترالية كانت تسأل عنهم، إذ من غير المحتمل أن يكونوا بانتظار شخص غريب كلياً. ولكن من هي تلك المرأة الأسترالية الأخرى التي كانوا ينتظرونها؟ هل هناك امرأة أخرى تسأل عن أيتام الحرب؟

سارت المرأة على سجادة واسعة، فأبعدت ريبيل هذه التأملات العديمة الفائدة من ذهنها، وتبعتها وهي تنظر إلى اللوحات الفنية على الجدار.

كانت جميعاً صور وجوه، وخُيِّل إليها أنها صور أجيال من آل داڤينبورت. ثم أخذت تتساءل عن شعور من يتحدّر من أسرة عريقة، فكل عضو في شجرة الأسرة معروف ومسجل اسمه على مرّ القرون. ترى هل يشعر السيد الحالي بثقل ذلك التراث على كتفيه؟ أم أن ذلك لا يعني له سوى القليل لأنه لم يعرف قط أي شعور آخر؟ أيمكنه أن يتصوّر شعور من لا أحد له؟ ومن لا جذور له؟

استدارت مدبرة المنزل فجأة إلى اليمين، وقرعت باباً ثم فتحته دون انتظار جواب، ثم وقفت تعلن:

- الفتاة الأسترالية هنا، يا سيدي اللورد، واسمها الآنسة جايمس.

- أخيراً! هذا رائع! يمكننا أن نستريح قليلاً الآن، أدخليها.

كانت لهجته لهجة أبناء الطبقة الراقية، المصحوبة بنفاد الصبر، ولم يشجع هذا ريبيل. ولكن، لم يعد هناك مجال للتراجع الآن. فتصلّب جسمها بشكل آليّ، وقررت مواجهة التحدي لكسب هذا السيد الإنكليزي العجوز إلى صفها.

أدخلتها مدبرة المنزل إلى قاعة هي من الروعة بحيث لم تر ريبيل

اللورد في البداية... كان هناك ثلاث مجموعات من المقاعد والأرائك والمناضد، واحدة منها موجودة مباشرة، أمام أكبر مدفأة رأتها ريبيل في حياتها، والمجموعة الثانية أقيمت على مقربة من ست نوافذ في ناحية من القاعة، وتحولت نظراتها أخيراً إلى الناحية الأخرى حيث جذب انتباهها حفيف صحيفة صادر عن الشخص الوحيد الموجود في القاعة الذي نهض.

وقف الإثنان عدة لحظات دون حراك، يحدّق الواحد منهما في الآخر بدهشة.. فلم تتصور ريبيل قط أن هناك «ماركيزاً» إنكليزياً تحت الخمسين من العمر. لكن هذا الرجل في الثلاثينات من عمره، ليس فقط أصغر كثيراً مما توقعت، وإنما أكثر وسامة مما تصورت، كما بدا لها بالغ الرقة والتهذيب.

كان طويلاً متناسق الجسم، يرتدي بذلة رمادية، رشاقته الطبيعية جعلت ريبيل تتساءل عما إذا كانت البذلة هي التي تسبغ جمالها على الرجل أم أن الرجل هو الذي أسبغ جماله على البذلة. كان شعره أسود كثيفاً أملس، مقصوصاً بشكل يظهر القوة والذكاء وجمال الملامح، جبهته الواسعة متلائمة مع فكه المربع نوعاً ما. حاجباه الأسودان يضفيان مزيداً من التألق والجاذبية على عينيه السوداوين وأنفه بمثل شموخ أنف حصان أصيل. أما الشفتان فلم تكونا متناسبتين بالرقة. فالشفة السفلى المكتنزة ذات مظهر شهواني عنيف، وهي أول ما تحرك فيه بابتسامة ساخرة خالية من المرح:

- سامحيني لجرأتي على التحديق فيك!

قال ذلك بصوت جهير صاف لا نشاز فيه، وهو صوت قادر على استعماله لنيل أيّ شيء يريده: «أعترف بأن صورتك لا تتلاءم تماماً مع الفكرة التي كوّنتها عنك، يا آنسة جايمس».

تغلبت ريبيل على ذهولها، ما الذي كان يتوقعه؟ لا فكرة لديها. فقالت مستغلة هذا الوضع بالغريزة؛ فالناس يحبون المساعدة:

- إنني بحاجة إلى مساعدتك.

- أي شيء هو لك.. ولكن في حدود المعقول.

بدا هذا حسناً تماماً لريبيل، فرغبتها لا تتجاوز حدود العقل مطلقاً، وقد يرافقها بنفسه أثناء جولتها في مزرعة داڤينبورت هول. لقد فتنها بحيث تراجعت رغبتها الملحّة في معرفة ما يتعلق بأمها. فقالت بابتسامة دافئة: «هذا كرم بالغ منك».

استقرت عيناه على ثغرها، ولكن أهدابه الكثيفة أخفت ما بدا فيهما من تعبير، فخفق قلبها وبهتت ابتسامتها وتوترت أعصابها فجأة.

- كرم؟..

أعاد هذه الكلمة بشيء من السخرية، واشتبكت نظراته بنظراتها بتحدٍ هازل: «إنها حدود العقل حتى النهاية، يا آنسة جايمس. وأرجو مخلصاً أن نتوصل إلى نهاية مرضية».

- وأنا أرجو ذلك أيضاً.

تمتمت ريبيل بذلك، غير واثقة تماماً مما توافق عليه، وشعرت بأنها تخوض، مع هذا الرجل، في مياه عميقة بالغة الخطورة. وانطلقت أجراس الإنذار في داخلها، ولكن سحر المجهول كان قد استولى على حواسها.

أشار يدعوها إلى الجلوس على أريكة بجانب النار:

- هل لنا أن نجلس؟ يمكنك أن تخبريني بما تريدين، ولا شك أنك فكرت بالأمر.

- نعم، نعم، شكراً.

تملكتها موجة من السرور، وكادت لا تصدّق هذا الترحيب الحار. مع ذلك كان في أعماقها شيء لم تفهمه، لقد ذكرت لبعض أهل القرية أيتام الحرب، لكنها لا تستطيع أن تفهم سبب إظهار مدبرة المنزل واللورد داڤينبورت كل هذه الراحة لحضورها. من الواضح أن هناك تفسيراً لذلك، ولكنه لم يعد يشكّل أمراً مهماً، فهي هنا الآن، وما يحدث بعد ذلك هو المهم.

جلست ريبيل على أريكة مخملية خضراء، منتظرة، ممتلئة بالإثارة، بينما أخذ مضيفها يحرك نار المدفأة. وعجبت لحاجته إلى النار أثناء الصيف.

هتف بها التعقل أن من الجنون أن تسمح لنفسها بالانجذاب نحوه، فهو من الطبقة الأرستقراطية، والذين مثله لا يختلطون إلا بأفراد طبقتهم. وتمنت، فجأة، لو كانت الحياة مختلفة.. فليتها قابلت هذا الرجل في مكان آخر، وظروف أخرى... على شواطىء «بوندي»، أو في مزرعة أغنام في «دوبو»، أو في حفلة.

وضع قضيب النار مكانه، ثم ارندّ يواجهها. صعدت نظراته من ساقيها الطويلتين المتناسقتين في البنطلون الجلدي الضيق، إلى حيث استقرتا على جمال تقاطيعها، ثم صعدت إلى عينيها. فأدركت ريبيل، وقلبها يخفق، أنه معجب بها بقدر أعجبت هي به.. مرّ ظل من السخرية على ملامحه قبل أن يتلاشى في نظرة شاردة متأملة.

- الطفلة صعبة تماماً!

قال ذلك بلهجة بالغة الاستياء، فقطبت جبينها. إن كان قد علم بأنها تستفسر عن أيتام الحرب، لتحدث عن الأطفال بأجمعهم وليس عن واحد بعينه. ثم إن حدسها الذي لا يخيب والذي شوّشته جاذبية الرجل القوية، سجّل فجأة أن ما التقطه من ذبذبات كان خطأ،

فشخصية الرجل أقوى من أن تتعلق بزيارة عابرة من فتاة غريبة.

هنا يدور شيء ما!.. شيء ما اصطدمت به عن غير قصد! لا بأس، ويبدو أن اللورد دافينبورت بحاجة إلى أن يصحّح تفكيره بأكثر من وسيلة، وإذا تمكنت من مساعدته، فقد يصبح أكثر استعداداً لمراجعة الخطأ الذي وقع فيه. فقالت بهدوء:

- ليس هناك طفل صعب، وإنما يضيع البعض منهم، فمن لا يستطيعون أن يجدوا الطريق إلى...

- لا يمكنك أن تعممي هذا الحكم، مهما كان قصدك.. حسناً... لأنك ستجدين نتيجة الاختبار مؤلمة، يا آنسة جايمس!

وقال فجأة بشيء من نفاد الصبر والاستعلاء: «ما هي الخبرة التي لديك في هذا الشأن؟»

تمالكت ريبيل نفسها لتسيطر على ردة فعلها إزاء استعلائه فليس هذا بأمر سهل الاحتمال.. وعلى كل حال، حاولت جهدها لكي تظهر معرفتها الشخصية بالموضوع، آملة حل المشكلة لأجله، فأجابت بهدوء:

- خبرة حياة كاملة، حياتي. قد لا يساوي هذا الكثير، لكن بإمكاني أن أجيب بما أعرفه، بصدق.

وفكرت في كل الأطفال الذين تبنتهم أسرة جايمس، وكيف تجاوبوا جميعاً، تدريجياً، بالمحبة والمشاركة بعد الحياة القاسية التي عانوها. وعادت تكرّر: «ليس هناك طفل صعب، بعضهم ضلّ طريقه، واعترضته مشاكل. يمكن إنقاذ معظمهم بالمحبة والمشاركة.. إنهم بحاجة إلى معرفة الوسيلة التي يصلون بها إلى قدرهم.. إنهم بحاجة إلى من يشجعهم.. إلى من يحبهم».

التهبت عيناه غضباً، ثم قال بسخرية جارحة:

- لقد خطفت أنفاسي، يا آنسة جايمس! يا لهذا الجهل.. والسخافة البالغة! كنت أظن الأستراليين شعباً واقعياً لا يؤخذ بالتفاهات والخداع!

تملك ريبيل الذعر، لقد أخطأت. لا شك أنها لمست منطقة حساسة. الأفضل أن تسرع في التراجع، وتقدم اعتذارها قبل أن يحدث ما يسيء إلى الغاية من مجيئها. وكانت على وشك الكلام حين أصلح تصرّفه، فابتسم لها معتذراً ووجّه سخريته إلى نفسه:

- أرجو المعذرة، فأنا آخر من يحق له مناقشة مثل هذه القيم الرائعة، وأنا شاكر لك موقفك هذا. صدقيني!

وبدا التحدي في عينيه وهو يتابع: «هل أفهم أنك مستعدة لأخذ الطفلة حتى دون أن تريها؟ حتى دون أن تعرفي نوع مقدرتها وقابليتها؟»

تنفست ريبيل بعمق:

- لورد دافينبورت، أظن أن لدينا، أنا وأنت، مشكلة صغيرة. ذلك أنني هنا لأمر مختلف، كما أظن، عما فهمته أنت.

فأجاب عابساً: «من الأفضل، طبعاً، أن تتخلي عن المهمة يا آنسة جايمس، وأنا أقدّر لك جهدك للتأثير فيّ، لكنني أفضل الصدق، ومواجهة الواقع التي تؤثر فيّ أكثر بكثير من التبجح بالقيم العليا».

لم تتعود ريبيل أن تُمنع من الكلام، كما لم تتعوّد أن يهاجم أحد كرامتها. ابتلعت ريقها، محدثة نفسها بأن لديه سبباً يجعله بهذه المرارة، وهذا لا يعنيها حقاً. ولكن الموقف يزداد حدة، والجواب الرقيق يهدئ من العنف. لم يمنحها وقتاً تفكر فيه بذلك الجواب، وقال مبتسماً:

ـ أؤكد لك أنني لست أعمى بالنسبة إلى ابنة أخي، ولا شك أن الوكالة اختصرت الكلام حين أطلعتك على سجّلها الشائن.. أرى أن المفاوضات بيننا تسير بشكل جيد... وأعتقد أن هناك ما يدفعك إلى قبول العمل، وليس عليك سوى أن تحددي شروطك، يا آنسة جايمس. سأبذل كل ما بوسعي لتيسير إقامتك هنا، إنما في حدود المعقول.

عندما استوعبت ريبيل كلماته الأخيرة، اتضح لها كل الأمر، فاللورد دافينبورت يبحث عن راعية لطفلة مفزعة قد أفسدها الدلال. وبينما أخذت ريبيل تفكر بسرعة عن أحسن طريقة لمعالجة الموقف وتحويله إلى مصلحتها، تسارعت الأحداث وخرجت من يدها.

انفتح الباب فجأة، ودخلت فتاة صغيرة صفقت الباب خلفها بعنف، واستندت إليه لاهثة، وقد بدا التمرد عليها وهي تحملق في وجه سيد البيت.

كان هذا التعبير على وجهها مختلفاً تماماً عن مظهرها الملائكي بشعرها الحريري الأشقر المنسدل على كتفيها.. كانت ترتدي ثوباً أزرق بديعاً بإمكانه أن يبهج قلب أي فتاة صغيرة، وحتى التكشيرة الشرسة على وجهها لم تنقص من جمال ملامحها الرقيقة، بل جعلت عينيها الزرقاوين الواسعتين أكثر حيوية.

قال لها اللورد ساخطاً: «سيليستي! كم مرة قلت لك بأن...»

صاحت الفتاة في وجهه بانتصار حاقد:

ـ لن تكون هناك مربية جديدة.. لن تكون لدي مربية جديدة على الإطلاق.. لأنني ذهبت لتوي إلى المربية الجديدة وضربتها حتى ماتت! ولهذا لن تكون هناك مربية جديدة، لن يكون لي ذلك أبداً!

* * *

٢ ـ الإرث المظلم

حدقت ريبيل في الطفلة بفزع... كيف يمكن لطفلة مثلها، في السادسة أو السابعة من عمرها، أن تكون بمثل هذا الحقد؟ أم أن هذا الانفجار العاصف ما هو إلا صرخة تمرد يائسة أمام جرائم ارتُكبت بحقها؟

حوّلت ريبيل نظراتها إلى الرجل لترى ردة فعله إزاء الرد على سلطته بمثل ذلك الهزء العنيف.. لم يكن يبدو على وجهه الرعب أو الاهتمام أو الكدر لما قالته الطفلة، وإنما مجرد احتقار هادىء. وتعمد أن يطيل من ذلك الصمت المتوتر الذي ساد الغرفة، قبل أن يقول بلهجة أرسلت قشعريرة في جسم ريبيل:

ـ لا تكذبي، يا سيليستي! لكي تثبتي أنك مجرمة عليك أن تظهري جثة، جثة إنسان ميت. وما دامت الآنسة جايمس جالسة هنا حية تماماً، فنحن نعلم تماماً الآن أنك كاذبة.

هل كان هذا كذباً؟ أخذت ريبيل تتساءل بحدة، وهي تنظر إلى التمرد البادي على وجه الطفلة وقد تحوّل إلى تشوّش. أين هي المربية التي كانوا بانتظارها؟ يبدو أنها تأخرت عن موعدها، وهذا ما جعلهم يستقبلون ريبيل ظناً منهم أنها هي.

تحوّلت الطفلة فجأة إلى ريبيل، صارخة بقنوط عنيف وعداء واضح:

ـ أنا أكره الصديقات، وسأتخلص منك أنت أيضاً.

وقبل أن يتمكن اللورد داڤينبورت أو ريبيل من الحركة، اندفعت الطفلة نحوها ثم رفعت قدمها وداست بقوة على قدم ريبيل.

الفلسفة التي تعلمتها ريبيل من والديها بالتبني طوال سنوات ظهرت الآن إلى العمل بردة فعل غريزية. أمسكت بذراعي الطفلة ورفعتها عن قدمها، ثم انحنت إلى الأمام تضغط بطرف حذائها الطويل على قدمي سيليستي تسمرهما على الأرض.

ـ إذا كنت ستتصرفين كبنات الشوارع، فهناك بعض الدروس الهامة التي عليك أن تتعلميها.

قالت لها ريبيل ذلك بحدة، بينما الطفلة مذهولة لهذه العقوبة الفورية:

ـ الدرس الأول هو ألا تبدئي معركة لا يمكنك أن تربحيها.. لا يمكنك أن تربحي معركة معي، ولهذا لا تزعجي نفسك بالقتال.

الاحترام أولاً، عند ذلك تحصلين على اهتمام الخصم... وبعد ذلك تبدأ المحبة.. وتدفقت الذكريات إلى ذهن ريبيل.. تذكرت كيف كان كل عضو تتبناه أسرة جايمس يقتنع تدريجياً بقبولهم وحبهم له. يمكنها أن تعالج أمر هذه الطفلة. وكل ما تحتاج إليه هو أن تفهم ما يدور في نفسها. وتذكرت ريبيل جيداً ما كانت هي نفسها تشعر به في تلك السنوات.

أخذت تتأمل العينين الكبيرتين الزرقاوين المتدفقتين بالمشاعر المضطربة. ثم رأت الصغيرة تلجأ إلى وسيلة الهجوم الوحيدة التي بقيت لديها، فهتفت بصوت مهتزّ ملتهب: أنا أكرهك!

فردت ريبيل بهدوء:

ـ هذا حسن جداً، إنما غبيّ نوعاً ما، لأن كل هذه الكراهية

تضرك أنت أكثر مما تضرني، وإذا أردت أن تمضي حياتك خاسرة، وحيدة، فهذا هو الطريق الذي تسلكينه الآن. أما الفتاة الذكية حقاً فتفكر أولاً في ما هو الأفضل لها قبل أن تقدم على شيء. والآن هل تريدين أن تكوني ذكية أم غبية؟

فأجابت الطفلة بغضب: «بل أنا ذكية. إنني أذكى كثيراً من أي مربية كبيرة!»

ـ هذا حسن، كل ما في الأمر هو أنني لست مربية، فارجعي إلى الخلف ولا تدوسي على قدمي مرة أخرى، فإذا بدأنا بسحق الأقدام، يمكنني أن أهزمك حتماً.

ورفعت ريبيل قدمها عن قدمي الطفلة، ثم تركت ذراعيها، فأسرعت سيليستي بالابتعاد وهي تنظر إلى عمها بذعر وتوسل. كان مذهولاً لسرعة تتابع الأحداث بحيث لم يرفع حاجباً، أما سيليستي فانفجرت بريبيل قائلة بتمرد وثورة:

ـ أنا لست خائفة منك!

اتكأت ريبيل إلى الخلف وهي تبتسم لها باستحسان:

ـ أصبحنا اثنتين، يا طفلتي، فأنا أيضاً لست خائفة منك.

التهبت عينا الطفلة بكبرياء أرستقراطي.

ـ أنا لست طفلة، بل أنا اللايدي سيليستي داڤينبورت!

قالت ريبيل هازئة: «هه!.. أنت لست لايدي. أنت مجرد طفلة. طفلة شوارع، في الحقيقة. لأن أطفال الشوارع فقط هم الذين يضربون المربيات حتى الموت».

ضاقت عينا الطفلة وهي تقوّم الأمر، ثم أنكرت بشراسة:

ـ أنا لم أضربها ولم أقتلها، كان بإمكاني قتلها لو شئت، لكنني حبستها فقط في مستودع الغاز. وهكذا أنا لست طفلة شوارع.

تنفست ريبيل الصعداء، ثم حوّلت نظراتها إلى اللورد داڤينبورت الذي ما زال واقفاً أمام المدفأة.. كانت عيناه السوداوان تنطقان بتساؤل كبير، فهزت ريبيل كتفيها قائلة:

- أولاً، يا سيدي اللورد، لديك مربية محبوسة في مستودع الغاز عليك أن تطلق سراحها، ويمكنك أن تترك الطفلة معي بأمان. إذا هي لم تدس على قدمي فلن أدوس على قدمها... اتفقنا يا طفلتي؟

- لا تقولي لي طفلة!

- اجلسي إذن وتصرفي مثل اللايدي، إذا كنت تعرفين.

نظرت الصغيرة إلى ملابس ريبيل الجلدية ساخرة:

- وأنت لست لايدي.

- أنا لا أدّعي بأنني لايدي، لكنني أتصرف كلايدي أكثر منك. ولن تعرفي من أنا إلا إذا جلست وأخذت تتصرفين بالذكاء الذي تتصورين أنك تملكينه.

- بل تحتاجين. أولاً، يمكنني أن أعلمك كيف تكونين محاربة جيدة، فإن لم تكوني محاربة جيدة فستنالين الضربات على الدوام.

عند ذلك رأت أول نظرة اهتمام من الطفلة. لقد تمكنت من الدخول إلى نفسي سيليستي. كم مرة صَعُب عليها أمر كهذه المرة... خمسة، ستة، سبعة؟ لكن الصنارة نجحت أخيراً ولن تتراجع الطفلة الآن.

- سأجلس هناك لأن هذا ما أريده.

أجابت ريبيل دون اهتمام:

- حسناً، أيتها الطفلة، قومي بما تشائين.

ألقت بنفسها على الأريكة المواجهة لريبيل، وقد امتلأت عيناها كراهية، لكن التصميم كان بادياً على وجهها لكي تثبت أنها أذكى من

خصمها.

رفعت ريبيل حاجباً ساخراً وهي تسأل اللورد داڤينبورت المسمّر في مكانه:

- ماذا عن المربية؟

أطبق شفتيه على كلمات الغضب التي كان على وشك التفوه بها لتجاهلها سلطته:

- آنسة جايمس لدي الكثير لأقوله لك عند عودتي، ولك أيضاً، يا سيليستي!

قال ذلك وهو يرمق الاثنتين بنفور مرّ. وبقي غضبه في جوّ الغرفة حتى بعدما أغلق الباب خلفه بحزم.

استنتجت ريبيل بأسف، أنه لن يرضى بأقل من تحقيق شامل معها بعد أن ينتهي من أمر الطفلة. فقد أصيبت كرامته بجرح موجع. ولكن عندما حوّلت ريبيل نظرها إلى الطفلة الجالسة أمامها، لم تعد تشعر بأي ندم على ما فعلت.. لا تدعي أن ما قامت به كان مهذباً للطبقة العليا، لكنه كان فعّالاً. وهذه الفتاة الصغيرة هي التي تشعر بالجرح العميق.

انفجرت الطفلة تقول بشراسة:

- لا يهمني كلامه! أنا أكرهه! أكره كل الناس.

كانت هذه صرخة أعادت إلى ريبيل صدى ماضيها، وعادت إليها الذكريات واضحة حادة.. كان ذلك إثر وفاة أمها، بعد أن هربت من دار الرعاية المريع ذاك، ثم وضعت وسط أسرة جايمس. لم تستطع أن تثق بهم بالرغم من لطفهم البالغ، لأنها أمضت قبل ذلك وقتاً طويلاً في الوحدة والخوف. لقد دفعت الجميع عنها دون تمييز، راغبة في إيلامهم لأنها هي نفسها كانت تتألم بشدة، مقتنعة بأن لا أحد

يريدها.

سألت الطفلة بفضول: «أين أهلك؟»

ـ إنهما ميتان، فاضطر عمي أن يرعاني.

ـ أنا واثقة من رغبته في رعايتك.

ـ لا، هذا غير صحيح. إنه لا يريدني أبداً، فهو لا يحبني، وهذا هو السبب في مداومته على إحضار المربيات لي، فهو يريد أن يبقى بعيداً عني. إنه لا يهتم بي.

قالت ريبيل بنعومة: «فهمت. وهكذا تقتلين المربيات حتى الموت حتى تجعليه يهتم بك!»

اندفعت سيليستي تنفي ذلك على الفور:

ـ هذا غير صحيح. أنا أفعل ذلك لأن المربيات عنزات عجوزات.. إنه لا يهتم بي وأنا لا أهتم به، وأنت لا تعرفين شيئاً!

تذكرت ريبيل أنها قالت شيئاً كهذا لأخيها الكبير الأميركي «زاكاري لي»، الذي كان يدفعها إلى السخط العنيف بلطفه وعطفه وتفهمه. إن سيليستي بحاجة إلى زاكاري لي آخر. المشكلة هي أن أمثال زاكاري لي لا يمكثون طويلاً، ومن المؤسف أن أسرة جايمس لا تستطيع أن تتبنى سيليستي وتشعرها بحس الإنتماء الدافىء الذي تفتقده هنا في داڤينبورت هول، كما يبدو.

هفا قلب ريبيل إليها. ألا يمكن لعمها أن يرى أنها عطشى إلى المحبة والعطف الحقيقيين؟ وأن عنفها هذا ما هو إلا صرخة من الأعماق لأنها لا تشعر بالانتماء إلى أحد؟ وأن المربية المستأجرة لا يمكن أن تسدّ حاجتها إلى ذلك؟ وبدت المشكلة وحلها واضحين تماماً لريبيل.

يجب عمل شيء بهذا الشأن. ولكن ما الذي يمكنها هي أن

تفعله؟ فهي لن تحصل حتى على الشكر بسبب تدخلها في شؤون هذه الأسرة.

سألتها سيليستي: «من أنت، على كل حال؟ قلت إنك ستخبرينني عن نفسك».

كانت هذه دلالة أخرى على اهتمامها بها. فابتسمت ريبيل:

ـ أنا مجرد زائرة، منذ زمن بعيد جاءت فتاة أخرى صغيرة للإقامة هنا، كانت مثلك لأنها كانت فقدت والديها، هي أيضاً، تلك الفتاة كانت أمي التي لم يكن لديها عم ليرعاها، أو أي شخص يستطيع مادياً أن يجلب لها مربية، ولهذا وضعها الناس في مركب. كان هذا ما يفعلونه تلك الأيام، كانوا يرسلون الأيتام إلى أستراليا، لذا لم تر إنكلترا أو منزل داڤينبورت مرة أخرى، لكنها كانت تتذكره دوماً.. كانت تقول إنه كان رائع الجمال. ثم ماتت عندما كنت أنا في مثل عمرك تقريباً. وها أنا قررت أن أحضر لأرى هذا المنزل، لذلك أنا اليوم ههنا!

سألتها الطفلة بفضول بالغ: «وهل أقامت في غرفتي؟»

ـ لا أدري. لا أظن ذلك، فقد كان هنا أربعون يتيماً، وأمي منهم. إنني أتذكرها وهي تتحدث عن داڤينبورت هول، لكنني لا أتذكر أشياء أخرى كثيرة عنها. هل تتذكرين أنت أبويك؟

عادت نظرة السخط إلى عينيها:

ـ طبعاً أتذكر.. كانا دوماً يحضران لي مربيات، كذلك. وأنا لا يهمني موتهما، بل أنا مسرورة. لأن أمي لم تقص عليّ حكايات قط، وعمي هاغ لا يحكي لي حكايات.. إنه مثلهما تماماً، فهو يسافر دوماً ويتركني هنا.

وهفا قلب ريبيل إليها مرة أخرى. لقد سمعت صرخة القلب هذه

مرات كثيرة في الماضي، وتمنت لو تستطيع القيام بشيء من أجل هذه الطفلة. لكنها ملتزمة حالياً، وعليها أن تجد ضامنين لسباق المناطيد الخيري الكبير الذي نظمه أخوها زاكاري والذي وضع ثقته فيها للقيام بذلك، ولا يمكن أن تخذله. هذا إلى أن كل أصحاب المناطيد المشتركين يعتمدون عليها لتسويق هذه الفكرة، ولا يمكنها أن تخذل أياً منهم. فما إن تأخذ في توزيع نشاطها هنا وهناك، حتى يفقد تأثيرها قوته، وهي فخورة دوماً بوفائها بعهودها والتزامها بالمساندة. فكيف يمكنها توريط نفسها ههنا، في هذا المنزل؟

قطعت سيليستي عليها حبل أفكارها. ويظهر أنها قررت أن تأخذ المبادرة بنفسها:

- لا أريد منك أن تقولي عني طفلة!

قالت ذلك وهي تنظر إلى ريبيل متحدية بغضب.

- عندما تحوزين على احترامي، سأدعوك سيليستي، ولكن ليس قبل ذلك...

بدا على ملامح الطفلة شيء من التفهم.

- ما اسمك؟

- ريبيل، ريبيل غريفيث جايمس.

فغضنت سيليستي أنفها باشمئزاز: «ما نوع هذا الاسم؟»

- إنه اسمي.

لكن الجواب لم يرضها:

- لماذا ترتدين هذه الملابس؟ هل أنت مجرمة؟ أم راكبة دراجة هوائية؟

- لا هذا ولا ذاك. هذه الملابس هي ما يناسبني لركوب الدراجة البخارية من لندن، كما فعلت اليوم. لكنني اعتدت ركوب الدراجات

الهوائية أيضاً.

وابتسمت لها ريبيل بمودة: «أما ما أحبه أكثر من كل شيء آخر، فهو الصعود بالمنطاد».

ولمعت عينا الطفلة، مرة أخرى، اهتماماً:

- المنطاد الذي يطير بالهواء الساخن؟ أتعنين مثل «حول العالم في ثمانين يوماً»؟

- نعم. إنها أحسن طريقة للسفر، الطيران في السماء هو شيء هادىء رائع. لي صديق ينظم رحلات بالمنطاد في جنوب إنكلترا، وسأقوم بجولة في الأرياف بهذه الطريقة.

فقالت سيليستي باكتئاب: «ليتني أستطيع ذلك!»

- لماذا لا تطلبين ذلك من عمك؟

- لن يسمح لي. إنه يكرهني!

اختار هو هذه اللحظة ليدخل الغرفة فأثلج المقدار الضئيل من الدفء الذي تمكنت ريبيل من إشعاله.. رأته شارد العينين جامد الأسارير. وغاص قلبها بسبب الوقفة الجامدة التي اتخذها وهو يخاطب ابنة أخيه:

- اذهبي إلى غرفتك، يا سيليستي. ولا تغادريها قبل أن آتي إليك.

كل كلمة كانت تمثل تعنيفاً بارداً، ونبذاً ثلجياً لسيليستي. وهبطت كتفا الفتاة الصغيرة وهي تنزل عن الأريكة ثم تقف. فقالت ريبيل برقة:

- هاي! أنا مسرورة بمعرفتك.

ارتفع رأس الصغيرة، وغاصت العينان الزرقاوان يأساً وهما تحاولان معرفة ما إذا كانت ريبيل تعني حقاً ما تقول أم أنها كذبة أخرى من أكاذيب الكبار.

www.elromancia.com

هتف هانف من أعماق ريبيل بأن تدعم هذا القول، وأن لا تدع هذه الفرصة تفلت من يدها:

- إن لديك طاقة كبرى، يا صغيرتي، طاقة حقيقية كامنة. يمكنك أن تكوني مناضلة كبرى ذات يوم، وأرجو أن تنجحي في ذلك.

انخفض الرأس، ولم تجب. وسارت سيليستي متثاقلة نحو الباب المفتوح. لم تنظر إلى عمها، ولكنها قبل أن تخرج إلى الردهة، وقفت تنظر إلى ريبيل، وقد اغرورقت العينان الزرقاوان بالدموع، وهي تقول متلعثمة: «يا ليت لي أماً مثلك!»

- سيليستي!

وكان هذا تعنيفاً ثلجياً آخر من عمها.

التوت قسمات وجه الطفلة وهي ترفع عينيها إلى الرجل المشرف عليها:

- أنا أكرهك! أنت لا تحبني أبداً! لا تحبني أبداً!

وشهقت باكية وهي تركض إلى الردهة.

كانت ريبيل قد نهضت واقفة دون وعي لما تفعل، وكل غرائز العطف والحنان فيها تدفعها إلى اللحاق بالطفلة لكي تخفف عنها وتطمئنها إلى أن هناك من يحبها.

- قفي حيث أنت، آنسة جايمس!

كان لهذا الأمر في جوّ الغرفة فرقعة السوط، فمنعها من الحركة، وحملقت فيه معنّفة وهو يغلق الباب ويقف أمامه حارساً، ثم قالت بلهجة اتهام:

- إنك حقاً لا تحبها، أليس كذلك؟

تلاشت الغطرسة والاستعلاء من وجهه، والتهبت عيناه ناراً خرجت من أعماقه:

- لا شأن لك بمشاعري، ولا تورّطي نفسك في أمرٍ لا تعرفين عنه شيئاً.

لكن دم ريبيل ثار حقاً، وهي لن تدعه يتهرب من الموضوع.

- لا أحب موقفك من الطفلة، إنك تخرّب أموراً كثيرة...

قال بغطرسة: «أنا لا أحتمل نوبات الغضب، يا آنسة جايمس. فالإنضباط يكوّن شخصية مميزة. لدينا خبرة خمسمئة عام في هذا الشأن».

فردت عليه بحرارة:

- ليس في مثل هذه الحالة، يا لورد داڤينبورت. هذا أسوأ أنواع الفشل. منذ متى ابنة أخيك في عهدتك؟

قال بغضب: «لا شأن لك في هذا. آنسة جايمس!».

فقالت بحدة: «أريد أن أعرف مقدار التلف الذي أحدثته بنظامك التأديبي هذا! هل أنت دوماً دون قلب بهذا الشكل؟ وقليل الإدراك والملاحظة؟»

مضت لحظة بدا فيها مرتبكاً لهذا الهجوم على شخصه. ثم قطّب حاجبيه وبدا عليه الاضطراب لما نعته به، والتهبت عيناه نفوراً وازدراء لوقاحتها هذه.. وقال بحدة:

- لا تهمني الطريقة التي عالجت أنت بها هذا الموقف، وهي تظهر نفاقك في الحديث عن المحبة والمودّة.

التهبت عينا ريبيل ازدراء:

- من الواضح أنك لا تعرف أي شيء عن الأولاد. إنني حصلت على احترامها على الأقل، وهذا ما عليك أن تحصل عليه منها، يا لورد داڤينبورت... أعني أن تحصل عليه لا أن ترغمها عليه.. وذلك قبل أن تبدأ في شفاء الجراح التي تعاني منها الطفلة. وعند

www.elromancia.com

ذلك، عند ذلك فقط، ربما تبدأ هي بالإيمان بالمحبة وتتقبلها. المركز والقوة اللذان يمنحك إياهما لقبك وثراؤك قد يفرضان على الآخرين احتراماً سطحياً لك، ولا شك أنك اعتدت انحناء الناس لك بسبب ما ورثته.. ورثته ولم تكتسبه بنفسك. لكن كيفية معاملتك للناس هي التي تكسبك احترامهم العميق، أما السلطة التي فوق احتمالهم فإنها لا تنتج سوى الثورة.

اضطرمت عيناه باحتقار متكبر لرأيها هذا:

- لا شك أن وجهة نظرك مختلفة عن وجهة نظري، ولكن ليس من عادتي اللجوء إلى العنف الجسدي مهما بلغ غضبي، كما أنني لن أسمح به.

لكن ريبيل لم تتزحزح عن موقفها:

- أنا لم أسبب أي ضرر، يا لورد داڤينبورت، فالطفلة تلك تعرف بالضبط مكانتها مني، وهذا شعور طيب سواء أعجبك أم لا.. شعور بالأمان لا يعرف الخوف وعدم الاستقرار.

ابتعد عن الباب متجهاً نحوها بشكل ينذر بالخطر:

- يبدو أنك تعرفين أشياء كثيرة يا آنسة جايمس... أنت تستغلينني، وقد دخلت بيتي بطريقة مخادعة نوعاً ما...

قاطعته غاضبة: «هذا غير صحيح، ما إن بدأت بالتعريف عن نفسي، حتى رحبت بي مدبرة منزلك وأسرعت بي إليك. وهذا ليس خطئي، وعندما أدركت أن هناك غلطة، حاولت تصحيحها. لكنك لم تستمع إليّ».

- صحّحي الأمر الآن إذن، من أنت وما هو عملك؟

ووقف شبه ملاصق لها، وهذا ما أرغمها على رفع رأسها إليه.

رفضت إرهابه هذا مع أن قربه منها جعل قلبها يخفق.. لم يسبق

لها أن تراجعت قط في حياتها ولن تفعل ذلك الآن. قابلت نظراته دون أن تطرف عيناها، متسائلة عن سبب تأثيره الغريب فيها، وعن قلبه الذي لم يدرك قلق هذه الطفلة التي في عهدته. وقالت بهدوء:

- أنا، بصرف النظر عن مبلغ كرهك واستيائك لذلك.. أنا المرأة التي ستوظفها أنت راعية لابنة أخيك. هذه هي أنا، يا لورد داڤينبورت.

ها قد فعلتها الآن!

اندفعت مباشرة إلى وضع قد يجبن عن دخوله أشجع الشجعان، ولكن ماذا كانت تستطيع غير ذلك؟ لم تشعر ريبيل قط من قبل أن هناك من يحتاجها قدر حاجتهم إليها هنا. إن عليها أن تحسن التصرف، بشكل ما، لكي توفّر وقتاً كافياً لكل شيء، ولكن عليها أن تكرس أكثر أوقاتها لتلك الفتاة الصغيرة الضائعة القانطة.

أخذ اللورد داڤينبورت ينظر إليها بمزيج من الاستنكار وعدم التصديق:

- لم أواجه مثل هذه الغطرسة من قبل، يا آنسة جايمس. أنت تدهشينني حقاً.

فردّت بحدة: «تصرفك عصر هذا اليوم فعل بي الشيء ذاته، حتى لم أعد أستطيع التنفس.

التمعت عيناه بنذير خطر، وسألها برقة متوقعاً ردّها:

- وإذا رفضت توظيفك عندي؟

قالت بحزم: «خير الطفلة وسعادتها لهما الأولوية. ضميرك، يا لورد داڤينبورت، يحتّم عليك ألا تحرم ابنة أخيك من فرصة العودة عن تدمير نفسها. ويمكنني أنا أن أمنحها هذه الفرصة».

سكتت ريبيل لحظة، ثم أضافت بشيء من الخبث: «إلا إذا كنت

تكرهها حقاً».

توترت ملامحه وهو يبتعد عنها ويستدير خلف الأريكة التي كانت سيليستي جالسة عليها. قبض على المسند المخملي بيدٍ وأخذ يحدق في نار المدفأة، وجعلها توتّره الشديد تتساءل عما إذا كان يكره الطفلة حقاً ويريد لها الأذى. وأشاعت هذه الفكرة في نفسها اضطراباً بالغاً.

قال بحدة من دون أن ينظر إليها: «أنا لا أعرف شيئاً عنك».

فأجابت متحدية:

ـ لقد سمعت شهادة ابنة أخيك.. فلا شهادة أحسن مما شهدت لي به. ماذا تريد أن تعرف أكثر من هذا؟

ـ خلفيتك وماضيك.

واستدار ينظر بسخرية إلى ملابسها الجلدية السوداء وحذائها الطويل قبل أن يرفع بصره إلى وجهها: «ما الذي سأدخله إلى منزلي، يا آنسة جايمس؟ امرأة شوارع تعرف كيف تقاتل؟»

التهبت مشاعر ريبيل وفقدت هدوءها كلياً، فانفجرت فيه غاضبة:

ـ هذا أفضل من أن أكون حمقاء أو جبانة، أو ضيقة العقل مثلك، أيها اللورد داڤينبورت الذي لا يرى سوى طريقة واحدة لمعالجة الأمور حتى لو ثبت فشل هذه الطريقة!

ـ أنت وقحة!

ـ وأنت شتّام!

ـ الطريقة التي تصرفت بها مع ابنة أخي...

ـ كانت من أحسن أعمال البيع التي قمت بها... فأنا بائعة، وهذا لا يتضمن جسدي.

قال لاوياً شفتيه: «بائعة! وهكذا حققت تجارة مربحة! ابنة أخي ظنت أنك اهتممت بها حقاً».

منعت ريبيل نفسها بجهد بالغ من الانقضاض عليه وتمزيقه بأسنانها وأظافرها. لا تذكر أنّ أحداً أغضبها بهذا الشكل... وأرغمت نفسها على القول، بصوت هادىء نوعاً ما:

ـ أنت لا تعرف الكثير عن البيع، أليس كذلك؟ فإذا كنت غير حذر تماماً، فستنكبّ على وجهك، وعدم الإخلاص سيزيحك جانباً حتى قبل أن تبدأ. حتى ترضي جميع الفرقاء أنت بحاجة إلى المهارة في التفاوض، وهذا يقتضي انتباهاً بالغاً لكل التفاصيل. والبرهان النهائي على اهتمامك هو الدعم الذي تقدمه، والإخلاص في العطاء (وسكتت تلتقط أنفاسها) لن يكون سهلاً عليّ إنجاز تعهداتي الأخرى وأنا أرعى ابنة أخيك يا لورد داڤينبورت. سيكون عليك أن تساعدني. لكن اهتمامي بتلك الطفلة يكفي لكي أمنحها أفضل ما يمكنني من الرعاية والدعم، ولكن سؤالي الوحيد هو: هل أنت مهتم بها حقاً بحيث تزودني بما أحتاج؟

ضاقت عيناه: «وما هي حاجاتك؟»

استعاد ذهن ريبيل بسرعة، برنامج الأسبوع القادم واختارت منه الضروري:

ـ سأحتاج إلى سيارة تحت تصرفي، وسأضطر إلى استعمال تليفونك مجاناً، ولكن اعلم أن قسماً كبيراً من مخابراتي سيكون دولياً. وقد أعطيت للناس عنواني في «مايفير»، وهذا يجب استبداله.

ـ مايفير!؟

دهشته، من إقامتها في أحد أهم مناطق لندن، منح ريبيل سروراً خبيثاً. كان بإمكانها أن تخبره بأن ذلك المنزل يملكه صهرها، وأنه

إحدى حسنات «جيل فيبر» الكثيرة نحو أسرة جايمس، فكل فرد منها لديه دعوة مفتوحة للإقامة أو استغلال أي من أملاكه أو منظمته الدولية. ولكن مثل هذا الإيضاح قد يجعل اللورد يظن بها الظنون، وقد تحملت ما يكفي من شكوكه، فقالت متحدية:

ـ نعم. أسكن هناك منذ وصولي إلى إنكلترا. هل هذا يجعلني محترمة في نظرك، يا سيدي اللورد؟

قالت ذلك بشيء من السخرية، فهو حتماً ليس سيّدها، ولكن رغبتها في سحق استعلائه تغلبت على حذرها المعتاد وفطنتها.

تنفس بقوة، ماحياً ما يكسو وجهه من تعبير وهو يسألها متوتراً:

ـ من أنت بالضبط، يا آنسة جايمس؟

ما كانت ريبيل تفخر به من انضباط وتهذيب، ذهب مع الريح وهي تقول:

ـ أنا بالضبط كما ظننتني، يا سيدي اللورد. أسترالية، واحدة من الطبقة الشعبية التي يتجاهل وجودها أبناء الطبقة الأرستقراطية.

ما إن انطلقت هذه الكلمات من فم ريبيل حتى ارتد إليها عقلها وتملكها الرعب. لقد نسفت بتسرعها كل ما بنته، فلم يعد ثمة فائدة، الآن، من القول بأن الذنب ذنبه لأنه تصرف كأرستقراطي فظّ. كان عليها أن ترتفع بنفسها فوق هذا، فليست هي التي ستعاني من فلتات لسانها، بل الطفلة التي بحاجة إلى معونتها.

عندما أخذت تستجمع ذكاءها لكي ترأب ما صدّعته كلماتها الغبية، لاحظت تحولاً غريباً على وجه اللورد داڤينبورت. فقد تلاشى التوتر، وتألقت عيناه فجأة بسرور غريب، ثم إذا به يلقي برأسه إلى الخلف وينفجر ضاحكاً. كانت ضحكة تجاوبت لها أنحاء القاعة الفسيحة، مبردة كل التوتر المرّ الذي كان بينهما.

أخذت ريبيل تحدق إليه وقد تشتتت أفكارها، وانتبهت بشكل غامض إلى تسارع دقات قلبها. مهما كانت فظاظة اللورد داڤينبورت، فقد بدا الآن، في مرحه هذا، بالغ الجاذبية. وعندما توقف عن الضحك، وشملها بنظرة استحسان، أخذ قلبها يخفق.

ـ آنسة جايمس، أرجو، بكل تواضع، المعذرة منك لردة فعلي الغبية في هذا الموقف الذي لم أكن مستعداً له. من الواضح أنك امرأة ذات مزايا فريدة، والأرجح أنك مناسبة للتعامل مع سيليستي.

وابتسم، كان في تلك الابتسامة شيء لم يعجب ريبيل. لكنها لم تستطع إدراك كنهه، بينما كان يتابع: «ومن كرم نفسك أن تقدمي وقتك وخبرتك كما فعلت الآن. تفضلي... هل لك أن تعودي إلى الجلوس؟ سأطلب شاي العصر، وبعد ذلك سنبدأ الحوار من جديد وسنصل بالتأكيد إلى تفاهم أفضل».

وجدت ريبيل أخيراً لسانها، لتقول متوترة:

ـ شكراً لك.

من الحماقة أن تشعر بهذا الاضطراب.. كان ينبغي أن يريحها التغيّر المفاجيء في اللورد داڤينبورت. ولكن هذا لم يحدث، خصوصاً عندما أخذت تتأمله وهو يطلب الشاي عبر التلفون الداخلي.

وحوّلت ريبيل نظراتها عن الرجل، تنشد بعض الراحة من المشاعر المضطربة التي أثارها في نفسها. أخذت نظراتها تجول في أنحاء القاعة الجميلة التي هي معرض فنّي رائع يعود إلى القرون القديمة، وإلى بداية عصر النهضة، فلماذا تحس بوجود شيء قاتم في هذا التراث؟

هنالك شيء قاتم يحيط بوجه اللورد داڤينبورت.. شيء قاتم في ابتسامته.

لماذا تشعر فجأة بشبكة تلتف حولها، تجذبها إلى شيء ما كان ينبغي أن يكون لها شأن به على الإطلاق؟

* * *

٣ ـ في دائرة الخطر!

ابقي هادئة باردة متمالكة لأعصابك! بهذا أخذت ريبيل توصي نفسها بحزم، واللورد دافينبورت يستقر على الأريكة أمامها. هناك طفلة صغيرة بحاجة إليها. وأن تربك نفسها بمثل هذه المشاعر الغريبة لهو شيء معاكس لهدفها. لقد ربحت المعركة؛ وكل ما عليها الآن، هو أن تضع ترتيبات مناسبة مع الرجل الذي قبل رعايتها لابنة أخيه.

اتكأ على الأريكة مسترخياً، وكأنه يسخر من توترها الظاهر للعيان. ثم منحها ابتسامة لطيفة أراد بها أن يبعث الاطمئنان في نفسها، كما بدا الاستحسان في عينيه السوداوين كبيراً دافئاً. ولكن ريبيل شعرت بمزيد من الارتباك رغم كل تجاربها. لم تستطع أن تضع لهذا الرجل صفة مألوفة، فهو وسيم إلى حد أفقدها توازنها.

ـ الحق معك، يا آنسة جايمس. يجب أن تحظى سيليستي باعتبارنا الأول، وأنا أعتذر عن عدم تقديري الكامل لتجاوب ابنة أخي معك، وهذا بالذات شيء مهم جداً كان عليّ أن أتوقف عنده. فالطفلة تكره كل شخص، ومع ذلك استطعت أنت استمالتها، وهذا ليس بالأمر السهل. إني أحيّيك على نجاحك، وأنا واثق من أن سيليستي ستستفيد جداً إذا صرت مربية لها.

كان هذا الكلام رقيقاً انتهى به إلى غرضه، وهو: مربية لابنة أخيه، امرأة تريحه وبقية سكان المنزل. إن هذا يفسر، دون شك،

www.elromancia.com

التغيير المفاجئ في سلوكه. يبدو أنها لم تربح المعركة على الإطلاق وإنما هي على وشك الانتقال إلى أرض جديدة. لكن ريبيل أقسمت، هذه المرة، على أن لا تفقد أعصابها، فابتسمت وقد بان الأسف في عينيها:

ـ آسفة لعدم فهمك إياي مرة أخرى، يا سيدي. فأنا لم أكن أعرض نفسي بصفة مربية. فابنة أخيك تكره المربيات. وإن قدمتني بهذه الصفة، فلن أنجح معها، هذا عدا عن التزاماتي التي تمنعني من التفرّغ لدور المربية الذي تتوقعه.

تبددت الحرارة من ملامحه حالما أدرك أنه لن يصل إلى غرضه، وبدا عليه تحفظ أرستقراطي وهو يسألها بحذر:

ـ ما الذي تعرضينه بالضبط، يا آنسة جايمس؟ ألم أسمعك تقولين إنك تريدين مني أن أوظفك لرعاية ابنة أخي؟

ـ عنيت بالتوظيف، الاستفادة مني. لديّ خبرة جيدة يمكنك أن توظفها لأجل سيليستي، يا سيدي. ولكن أن أكون موظفة عندك، تدفع لي أجراً وأنفذ رأيك ومطالبك... فهذا ما لا أريده.

زاد التحفظ الأرستقراطي في وجهه، والتمعت عيناه تشككاً:

ـ أريد أن أعرف ما الذي تعرضينه، يا آنسة جايمس.

فقالت بهدوء: «أتمنى لو أمنح ابنة أخيك كل وقتي، يا سيدي اللورد، فهي بحاجة ماسة إلى رعاية. لكني للأسف لا أستطيع أن أمنحها سوى جزء من هذا الوقت، ولهذا أنا بحاجة إلى تعاونك معي في إقامة وضع يكون مقبولاً لديها».

اختفى الشك وحل مكانه تيقظ بالغ، فقال:

ـ استمري.. من فضلك!

شجع هذا ريبيل، فأخذت تراجع وضعها الخاص عقلياً:

ـ الأفضل أن نتصرف بأسرع ما يمكن، ما دام الانطباع الذي أحدثته في نفس ابنة أخيك جيداً. أنا بحاجة للعودة إلى لندن للقيام بترتيبات ضرورية، لكنني سأنتهي من ذلك صباح غد. وفي نفس الوقت، سيكون مفيداً جداً أن تخبر سيليستي بأنك طلبت مني الإقامة في منزلك طوال مدة بقائي في انكلترا، لأنك تهتم بها، وتعتقد أنها تحب أن أكون معها.

ـ فهمت (ولوى شفتيه ساخراً) تريدين أن تكوني ضيفتي في دافينبورت هول، لمدة غير محدودة.

تجاهلت ريبيل هذا التفسير الساخر، رغم استيائها مما يتضمنه من اتهام بأنها طفيلية أو انتهازية تريد استغلال حاجة الطفلة إليها لتنال ما تريد.

ـ بصفتي ضيفة، لن أشكل أي تهديد في نظر ابنة أخيك يا سيدي اللورد، إذ سيكون لها الخيار في قبول صحبتي أو تجنبها.

قال ساخراً من نظريتها:

ـ أفرضي أنها تجنبتك؟ عند ذلك لن يمكنك القيام بشيء لأجلها!

ابتسمت ريبيل لأنها واثقة من أنّ هذه لن تكون القضية.

ـ سأعقد معك اتفاقية، يا لورد دافينبورت. امنحني ضيافة أسبوع هنا، فإذا تجنبت سيليستي صحبتي أثناء ذلك، أعترف أنا بفشلي، وتتخلص أنت من ضيافتي. هل هذا يريحك؟

ارتفع حاجبه متحدياً بسخرية:

ـ أسبوع واحد فقط، يا آنسة جايمس؟ هذه مقامرة! ما الذي يجعلك تظنين أنك ستفوزين؟

ـ الخبرة!

ومرة أخرى جاءت الابتسامة الحاوية على سخرية سوداء.

ـ آه، نعم! لقد نسيت أن التجارة تعتمد على لعبة الثقة.

ـ وعلى الاستقامة، يا سيدي اللورد، فالوعد دون وفاء هو لعبة خاسرة، وهذا لا ينفع مع ابنة أخيك.

فتحولت الابتسامة إلى تكشيرة:

ـ أشك في أن ثمة شيئاً ينفع مع ابنة أخي، أما بالنسبة إلى الاتفاقية التي تعرضينها، فهي ليست ما كان يجول في ذهني.

ـ ما كان في ذهنك، يا سيدي اللورد، قد اتضح عدم فائدته. أليس كذلك؟ وما كنت لتعرض عليّ وظيفة مربية لو أن المربية التي حبستها سيليستي ما زالت تنتظر، ولن يكون العثور على واحدة أخرى أمراً سهلاً. ما الذي ستخسره إذا أنت جربت عرضي لعدة أيام... أو أسبوع؟

فقطب جبينه، غير قادر على دحض حجتها بينما تابعت هي: «على الأقل ستحصل ابنة أخيك على اهتمام جزئي مني فيما تبحث أنت عن بديل أقرب إلى ذوقك. وإذا أنا نجحت في تحسين تصرفاتها، تكون هذه النتيجة منحة لك، أليس كذلك؟»

ضاقت عيناه وهو ينظر إليها متفحصاً:

ـ سبق أن ذكرت تعهدات أخرى، يا آنسة جايمس. الحاجة إلى سيارة تحت تصرفك، حرية في الاتصالات التليفونية. أحب أن أعلم بالضبط نوع العمل الذي تقومين به.

أجابت باسمة: «بكل سرور. إنني هنا في انكلترا أفتش عن ضامنين لواحد من أهم الأحداث الخيرية التي نظمت على الإطلاق. ولا بد أنك قرأت عنه، مئة وخمسون منطاداً تطير من لندن لتعبر أوروبا، وسيكون أكبر سباق مناطيد في التاريخ».

فقال وقد عاد التحفظ الحذر إلى وجهه:

ـ لقد رأيت شيئاً عن ذلك في التلفزيون، هل أنت مشتركة في التفتيش عن ضامنين؟

ـ نعم. هذا هو عملي، الضامن يقدّم خمسة وعشرين ألف جنيه، ومقابل ذلك يحصل على مكانة واعتبار وإثارة وإعلانات ضخمة لكل ما يريد الإعلان عنه على منطاده، وسيظهر هذا السباق على التلفزيون كل ليلة مع تغطية واسعة لانتاج الضامن. والفائز يقدم إعانة للمبرّة الخيرية، إلى ذلك وضعتُ خطة للمنافسة بين المشاركين أنفسهم، وهذا ما يزيد في الإثارة والحماس.

رفع حاجبيه استحساناً:

ـ هذا رائع! كم مشتركاً لديك حتى الآن؟

ـ مئة وسبعة عشر، ما زال أمامي ثلاثة وثلاثون.

ـ يبدو أنك عضو في فريق كبير ومنظم!

لم تستطع ريبيل منع ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهها:

ـ أنا هي الفريق، يا سيدي اللورد، ليس هناك غيري، أنا المسؤولة الوحيدة عن تأمين ضامنين. وقد اكتسبت سمعة حسنة بأنني أفي بكل تعهداتي.

كان للاحترام الذي بدا على وجهه فعل البلسم في تخفيف كل ما سبق وعانته منه، كما زاد من ثقتها بنفسها. ليس بإمكانه بعد الآن أن ينبذ بسهولة ما تقول.

ـ هذه مسؤولية كبرى بالنسبة إلى شابة صغيرة مثلك!

ـ ربما أنا صغيرة بسنوات عمري، لكنني لست صغيرة في هذا الحقل.

قال بشيء من الدعابة والهزل:

- إنك مجموعة من المدهشات المتنوعة، يا آنسة جايمس!

قالت ضاحكة: «وأنت نفسك كنت مفاجأة مدهشة لي، يا سيدي اللورد. طالما تصورت أن الماركيز الإنكليزي هو دوماً سيد مسن».

التمعت عيناه سخرية: «سبق أن قلت بنفسك، إنها مسألة وراثة، وليست اكتساباً. وهي ليست امتيازاً على الدوام.. على الأقل، بالنسبة إلى الأستراليين.

قال ذلك ثم لوى شفتيه هازلاً، فقالت بابتسامة عريضة:

- آه! لا ينبغي إطلاق أحكام عامة، يا سيدي اللورد. فكثير من الناس يتأثرون بالألقاب، وأنا لست واحدة منهم، ولهذا علاقة بتراثي الخاص.

سألها باهتمام: «وما هو تراثك؟»

- ليس لي تراث، فأنا صنعت نفسي، بمساعدة الآخرين. وهو نوع من المساعدة أرجو أن أمنحه لابنة أخيك، يا سيدي اللورد.

وسكتت لحظة ثم قالت تنهي الحديث: «هل سنعقد اتفاقاً؟»

أخذ ينظر إليها متأملاً بصمت، وأمسكت ريبيل أنفاسها. لم يعد لديها ما تقول، فقد استنفدت كل أسلحتها.

- نعم، إنني مهتم بعقد اتفاقية معك لمدة أسبوع، يا آنسة جايمس، ينبغي أن نحسم أمر إقامتك هنا بطريقة أو بأخرى.

شعور ريبيل بالراحة سرعان ما نغّصه إحساسها بأنه لم يكن يفكر في ابنة أخيه على الإطلاق.. إنه حقاً رجل معقد، يصعب فهمه، وهذا يبعث على الفضول والتحدي. لكنها ربحت أول موضع قدم.

وبينما كانت تفكر في الحركة التالية، إذا بطرق على الباب يعلن وصول شاي العصر، تبعه دخول رجل طويل القامة يرتدي ملابس رسمية، يدفع أمامه عربة شاي، ويحيط به جوّ من الوقار. شعره

الخفيف أبيض، رغم تورد وجنتيه وعدم تغضُّن وجهه نسبياً، قدرت له ريبيل عمراً يقرب من السبعين. قال اللورد داڤينبورت مدهوشاً:

- السيدة توكينز قالت إنك مريض، يا بروكس.

قال الرجل بصوت متألم:

- وعكة خفيفة. إنني قادر تماماً على رعاية ضيوفك، يا سيدي اللورد.

كان واضحاً أنها مسألة كبرياء، أو فضول، وألقى على ريبيل نظرة مقوّمة، مفكراً في التقرير الذي قدمته مدبرة المنزل عنها دون شك. قال اللورد يقدمه إلى ريبيل:

- رئيس خدمي، الآنسة جايمس ستكون ضيفتي هنا طوال الأسبوع القادم، يا بروكس.

قال بروكس بسلطة ظاهرة:

- أنا واثق من أن جميع المستخدمين سيرحبون بك، يا آنسة جايمس.

فابتسمت له ريبيل قائلة: «شكراً لك».

قدّم الشاي برشاقة، ومرة أخرى أخذت ريبيل تفكر، رغماً عنها، في هذا العالم المهذب النقي الذي يعيش فيه اللورد. طقم الشاي الفضي، الأواني الصينية الفاخرة، الشطائر الصغيرة الدقيقة الصنع، القشدة الدسمة والمربى المصنوع في المنزل.. كل ذلك منظم بأناقة بالغة العفوية.

من الممكن أن يكون هذا الرخاء مغرياً للغاية، ولكنه لا يجلب السعادة. ذلك أن اللورد داڤينبورت لا يبدو راضياً مطمئناً، ورغم اختلاف الظروف، فإن ابنة أخيه تعيش نفس حالة الضياع التي كانت عليها ريبيل في طفولتها.

هذه الفكرة الأخيرة ذكرت ريبيل بغرضها الأساسي من قدومها إلى داڤينبورت هول. نظرت إلى رئيس الخدم متأملة وهو يتراجع بوقار. هذا الأسبوع سيمنحها فرصة تسأل فيها كل شخص في المزرعة عن أيتام الحرب الذين أقاموا هنا، ولا بد أن بروكس كبير في السن إلى حد يستطيع معه أن يتذكر ذلك الوقت.

ـ هل رئيس خدمك يعمل مع أسرتك منذ وقت طويل، يا لورد داڤينبورت؟

ألقت ريبيل هذا السؤال على اللورد بعد أن أصبحا بمفردهما.

ـ منذ الحرب.

ـ ليس أثناءها؟

ـ كان يخدم في الجيش أثناء الحرب. أما الآن، فكان ينبغي أن يكون متقاعداً، لكنه سيشعر بجرح في كرامته إذا نحّيته عن مركزه في هذا البيت. صحته تتوعك أحياناً.

إذن لن يتمكن بروكس من أن يخبرها بشيء عن أمها، وهذا ما خيّب أملها، ولكن لا بد من وجود شخص يمكنه أن يتذكر. المهم أن تسأل السؤال المناسب في الوقت المناسب، وهذا الوقت ليس الآن. ثم أزاحت هذه الأفكار من ذهنها، وركزت اهتمامها على موضوع سيليستي.

خطر لها، فجأة، أن اللورد داڤينبورت قد تحدث عن رئيس خدمه بعطف وحرارة، في حين يحجب ذلك العطف وتلك الحرارة عن ابنة أخيه! فحديثه عنها لم يتضمن أثراً من العطف ولا مرة واحدة. ولكن، من الواضح أنه قادر على التعاطف، وهذا يعني أنه ليس مخلوقاً من ثلج.

رفعت بصرها فرأته ينظر إليها، وقد ارتسمت في عينيه معانٍ هي

حتماً لا تكون لدى رجل ثلجي. لم تجد فيها ما يوحي بالدم الأرستقراطي الأزرق على الإطلاق، وإنما اهتمام رجل ذي دم أحمر، أرسل في كيانها موجة من السخونة على الفور. قال باسماً:

ـ لم تخبريني باسمك الكامل، يا آنسة جايمس، وبما أنك ستكونين ضيفتي، فستكون التمثيلية أكثر إقناعاً بالنسبة إلى سيليستي إذا نحن تخلينا عن الشكليات في التحادث. ألا تعتقدين ذلك؟ إن ضيوفي يدعونني عادة باسمي «هاغ».

سحبت ريبيل نفساً عميقاً، فعندما يتصرف هاغ داڤينبورت بظرف، يصبح جذاباً للغاية، ويصبح تأثيره فيها مقلقاً. أجابت:

ـ شكراً، هذا أفضل. لكنني لم أشأ أن أنجرأ كثيراً. اسمي الكامل هو «ريبيل غريڤيث جايمس».

ـ ريبيل! إنه اسم غير عادي، ولن يصعب عليّ تذكره. متى علينا أن ننتظرك غداً؟

ـ إذا أرسلت إلي السيارة الساعة العاشرة صباحاً، فسأكون جاهزة للمجيء.

قال وهو يمد يده إلى جيب داخلي ويخرج قلماً ذهبياً ومفكرة أنيقة: «عنوانك في «مايفير»؟»

أعطته العنوان فكتبه في المفكرة، ثم قال بجفاء:

ـ سأخبر سيليستي أنك ستكونين هنا في وقت الغداء.

ـ شكراً.

وما دام أتى على موضوع ابنة أخيه، لم تشأ أن تفلت هذه الفرصة:

ـ من المفيد أن تحدثني عن خلفيات سيليستي قبل أن أجتمع بها مرة أخرى.. لقد أخبرتني أن والديها ميتان. وإذا لم يكن لديك مانع

فأخبرني بظروف أخرى..

توترت ملامحه، فالتزمت ريبيل الصمت، وتنبهت إلى أنها طرقت مرة أخرى منطقة حساسة، فعاد اللورد رجلاً ثلجياً. أخيراً جاءها الجواب:

- مات أخي على منحدرات ثلجية في سويسرا. وقد ورثت أنا لقبه وسيليستي، وذلك منذ ستة أشهر.

أنذرت المرارة في صوته ريبيل بالتعقيدات التي يمكن أن تكون ذات صلة بسلوك سيليستي، فقالت بهدوء: «آسفة! لم أدرك أن والدها كان الماركيز قبلك، وأن الفاجعة وقعت حديثاً!»

كان هذا تفسيراً ممكناً لعدم وجود روابط بين العم وابنة أخيه. قد يجمع الحزن أحياناً الناس إلى بعضهم بعضاً، ولكن ليس في جميع الأحوال، وفي الواقع لم تظهر سيليستي أي حزن لموت والديها.

- ومتى ماتت أمها؟

سألته ريبيل برقة لكي تزداد فهماً للطفلة.

- يوم جنازة أخي. في حادث سيارة وهي في طريقها إلى لندن.

قال ذلك بلهجة توحي بشماتته لموت زوجة أخيه في ذلك الوقت بالذات. نظرت في عينيه تبحث عما ينبئها بشعوره، لكنهما كانتا جامدتين، ما جعلها تشعر بقشعريرة في جسمها، فقالت بعطف:

- لا بد أن ذلك كان مؤلماً للغاية.

لمعت عيناه بنوع من الوحشية... أم لعله شعور حاقد بالفوز؟ لكن هذا مرّ بسرعة جعلت ريبيل تظن نفسها واهمة في تصوراتها.

أجاب بفظاظة: «الشهور الستة الماضية لم تكن سهلة».

- هل كانت سيليستي في السيارة مع أمها؟

ألقت ريبيل بهذا السؤال، متسائلة عما إذا كان الحادث قد صدم الطفلة.

- لا! لقد تركتها كريستين هنا. ومنذ ذلك الحين بقيت سيليستي في رعايتي. لقد بذلت لأجلها كل ما في وسعي.. صدّقي أو لا تصدّقي..

امتنعت ريبيل عن التعليق على هذا الموضوع، قد يكون بذل كل ما بإمكانه من وجهة نظره، ولكن ثمة أمور كثيرة عن الأطفال ينبغي عليه أن يتعلمه، حسب رأيها. سألته:

- تقول سيليستي إنك تسافر وتتركها وحدها.

- ليس وحدها.. فعملي يتطلب مني السفر. عليّ مسؤوليات تجاه أناس آخرين بجانب ابنة أخي، فأنا لست مجرد كسول يعيش على إرثه. والواقع أنني لم أتوقع على الإطلاق أن أصبح ماركيزاً. فأنا أتاجر بالألبسة. وهذا يستلزم زيارات منتظمة إلى فرنسا وألمانيا.

- فهمت! (تمتمت بذلك مقتنعة بأسباب غيابه) ولكن ألم تفكر في أن سيليستي بحاجة إلى المزيد من وقتك؟

فتنهد بسأم: «إن سلوك سيليستي قد استقر على هذه الحال قبل أن تأتي إلى رعايتي بوقت طويل. فأنا لم أحوّلها إلى متوحشة، وقبل أن تحتجّي على هذا الوصف، أبلغك بأنه هو ما نعتتها به المربية التي أنقذتها من مستودع الغاز. لقد أخبرتني، وهي في حالة تقرب من الهستيريا، بأن الطفلة يجب أن تسجن ويُلقى بالمفتاح بعيداً. ويمكنني أن أضيف أن كل مربية لسيليستي، منذ تجاوزت طور الرضاع، قد قالت الشيء نفسه، لا شيء تغيّر. وهذا سجل حقيقي وليس مجرد ادعاء».

فقالت باقتناع:

ـ حبس الطفلة وإلقاء المفتاح بعيداً ليس حلاً!

ـ قد يشكل سلاماً مؤقتاً لأولئك الذين جعلت حياتهم تعسة، وهذا يشمل كل شخص في هذا المنزل. لكنني أوافقك على أنه ليس حلاً، وأعترف بأنني لا أملك حلاً. على كل حال، ما دمت تعتقدين أن بإمكانك إنقاذ الطفلة، فلن أقف في طريق هذه الإمكانية... وسأراقب تقدمك معها هذا الأسبوع ببالغ الاهتمام.

ولكن ريبيل شعرت بعدم قناعته وبأن كلامه هذا مجرد لباقة منه، لكنها قالت بحزم:

ـ أرجو أن تترجم اهتمامك بالتعاون معي في كل ما أراه ضرورياً لخير ابنة أخيك.

فقال ساخراً:

ـ إذا كنت تضعين في الحسبان سحق الأقدام، فلن أتدخل!

ـ شكراً. هل تريد أيضاً أن تكون أكثر من مجرد مراقب سلبي؟

قطب جبينه: «ما هو سؤالك بالتحديد، يا ريبيل؟»

ـ هل ستتبع نصيحتي؟

ـ هذا يعتمد على نوع النصيحة. فلا فائدة من محاولتي التصرف ضد قناعتي.

ـ هذا صحيح. هل سترتب أمورك هذا الأسبوع بحيث تمضي هنا أكثر أوقاتك؟

فضحك بهدوء جعل قلبها يخفق، ورقصت عيناه وهو ينظر إليها متحدياً هازلاً، تحدي رجل لامرأة.

ـ نعم، حتماً سأرتب أموري للبقاء هنا طوال الأسبوع.. فالخبرة التي تقدمينها كافية لكي تبعدني عن العمل.

خفق قلب ريبيل بقوة، هاغ دائينبورت يستضيفها لغرض لا علاقة

له بابنة أخيه، إنه يشعر نحوها بنفس الانجذاب الذي تشعر هي به نحوه. والآن، بعد أن اطمأن إلى أنها ليست امرأة مخادعة يريد أن يكتشف المزيد عنها.

تشوش ذهن ريبيل فجأة بمزيج من التوجّس والإثارة، هي أيضاً تريد أن تكتشف المزيد من مشاعرها نحو هذا الرجل. لكنها لا تريد أن تدع ذلك يعرقل طريقتها في مساعدة الطفلة، ومن ناحية أخرى، ربما تكون رغبة هاغ دائينبورت في صحبتها مفيدة بالنسبة إلى سيليستي... رغم أنها ستكون لعبة بالغة الرقة والصعوبة في التنفيذ.

يقولون إن كل شيء مسموح في الحرب والحب. الطفلة بحاجة إلى أن تكون محبوبة. وقررت ريبيل أنه إذا كان عليها أن تحارب نفسها وهاغ دائينبورت معاً لكي تصل إلى تلك النتيجة، فكل وسيلة في هذا السبيل مبرّرة.

بعد أن رضيت ريبيل بهذا القرار، ابتسمت لهاغ دائينبورت وهي تنهض:

ـ عليّ أن أذهب. لديّ الكثير من الأعمال قبل الغد.

ـ طبعاً!

تملكها نوع من الحذر عندما وقف وابتسم لها. وأخذت تفكر في أن غريزتها كانت على صواب، لأنها تخوض حقاً في مياه عميقة خطرة مع هذا الرجل.

ـ ما دام ليس لديك سيارة...

ـ لقد جئت بدراجة بخارية، وهي عند مدخل البوابة.

استقرت عيناه على ملابسها الجلدية، ما جعل حرارتها ترتفع.

ـ فهمت. في هذه الحالة سأرافقك إلى الخارج.

سار بجانبها يفتح لها الباب بكل تهذيب، لكنه لم ينطق بكلمة

إلا حين وصلا إلى الباب الخارجي.

ـ أظنني مدين لك بعدة اعتذارات.

فضحكت وهزت رأسها:

ـ أظنني، أنا نفسي، مدينة لك باعتذار أو اثنين، فلنقل إننا متساويان.

ألقى عليها نظرة جانبية هازلة:

ـ إذا كانت هذه اتفاقية أخرى، فقد قبلتها.

ابتسمت بمكر: «اتفقنا».

أطلق ضحكة خافتة أثناء هبوطهما الدرجات فأخذ قلبها يخفق. لكنها أخذت تعنّف نفسها على هذا الشعور، فمن الجنون أن تغازل هذا الرجل بأي شكل كان. إلى أين يمكن أن يؤدي ذلك؟ فقط إلى فوضى في المشاعر! قد لا تعني الألقاب شيئاً بالنسبة إليها، لكن الإنكليز مشهورون بالتمسك بنظام الطبقات. وهي تشك كثيراً في أن هذا الماركيز سيكون مختلفاً من هذه الناحية.

الخبرة، هذا كل ما يريده معها... وقد قالها بصراحة، أثناء سيرهما في الطريق المشجّر.

سألها: «ما الذي جاء بك إلى داڤينبورت هول، يا ريبيل؟»

نظرت إلى الأغصان المنتشرة فوق الرؤوس التي تؤلف مع أوراقها الخضراء مظلة رائعة الجمال. في هذه اللحظات تملكها مرة أخرى، ذلك الشعور الموحش في أنها تسير في نفق الأبدية. أترى أمها تراقبها من مكان ما؟ طفلة يتيمة كما كانت ريبيل يوماً؟ وكما هي سيليستي؟

ـ ربما هو القدر!

أجابت بذلك، وهي غارقة في تأملاتها. وشعرت بنظرته الحادة،

فالتفتت تواجهها.

قال بصوت أجش: «لا أؤمن بالقدر!»

قررت أن هذا هو الوقت المناسب لتخبره بالحقيقة.

ـ أردت أن أرى المنزل داڤينبورت هول. كانت أمي يتيمة حرب، فلجأت إلى هنا حيث مكثت ستة أشهر قبل أن تُشحن بسفينة إلى أستراليا. كانت مع نحو أربعين من الأيتام الآخرين.

ـ شُحنت إلى أستراليا؟!

سألها ذلك مقطباً جبينه وكأن مثل هذه الفكرة بعيدة عن التصديق. فقالت مؤكدة:

ـ هذا ما حدث، يا هاغ. كانت أمي في الخامسة من عمرها حينذاك. لكنها لم تنس هذا المكان قط، كل ما كنت أريده هو أن ألقي عليه نظرة. لكنني عندما وصلت إلى البوابة، أردت أن أرى المزيد. وهكذا أوقفت دراجتي وسلكت هذا الطريق المشجر وقرعت جرس الباب الأمامي، مصممة على أن أستأذن لإلقاء نظرة في أنحاء المنزل.

ـ نظرة فقط؟!

ـ توقعت أن أضطر إلى عرض مشروعي.

فكرت ريبيل راضية بأن لا حاجة للغوص أكثر في الموضوع، فأمامها أسبوع بكامله لكي تعرف أشياء كثيرة عن أمها، وعن سيليستي وعن الرجل الذي بجانبها، وإذا تمكنت من ترتيب الأمور كما تتمنى، فقد يمتد الأسبوع مدة أطول. من يدري إلى أي حد؟

وصلا إلى نهاية الطريق المشجر، فانحرفت نحو دراجتها، أما هاغ داڤينبورت فتوقف في مكانه ينظر إليها متأملاً. لم يتكلم حتى استقامت على الدراجة واستعدت لتضع خوذتها على رأسها:

ـ أتعتقدين حقاً أن بإمكانك القيام بمعجزة بالنسبة إلى سيليستي؟

ـ نعم! ما كنت لأخاصمك بهذا الشأن لولا إيماني بذلك، يا هاغ. ربما لن أحقق معجزة في مثل هذا الوقت القصير، لكنني واثقة من أن ما سأقوم به نحوها سيكون له تأثير كبير.

قال بصوت بالغ الرقة: «لا تراهني على هذا كثيراً، يا ريبيل. لقد جرب آخرون قبلك ممن كانوا طيبي النية مثلك، وفشلوا».

ولوى شفتيه اشمئزازاً: «سيليستي هي ابنة كريستين! لا فائدة! (ثم ابتسم لها) إلى اللقاء غداً».

وارتدّ على عقبيه تاركاً ريبيل تتساءل عما إن لم يكن عليها، منذ البداية، أن تنزل عن هذه الدراجة مطلقاً.

ثمة ظلام في هذا المكان.. ظلام بإمكانه أن يبتلعها ويمزقها إرباً إرباً. الطفلة مضطربة النفس للغاية، والرجل تأكل قلبه الكراهية.. كراهية للطفلة ولأمها زوجة أخيه. ولكن حتى وهي ترى الخطر ماثلاً في هذه المهمة التي ألزمت نفسها بها، فقد شعرت بأن المكان يأسرها.

* * *

٤ ـ سمّ الأفعى

كان الوقت ظهراً تقريباً، عندما رجعت ريبيل إلى دافينبورت هول في اليوم التالي، وفيما كانت الرولز رويس تتقدم ببطء على الطريق المشجر، حاولت ريبيل أن تقمع كل الشكوك التي ضايقتها منذ غادرت هذا المكان أمس. لقد تعودت أن تكون صافية الذهن بعد كل قرار تتخذه. لكنها هذه المرة وجدت نفسها مشوشة بسبب مشاعرها تجاه أولئك الذين ستتعامل معهم. ربما تؤيد الطفلة أكثر مما ينبغي. ولعل هذا الاندفاع الزائد سيقودها إلى الضلال مع سيليستي التي قد تكون مشاكلها أكثر تعقيداً مما تتوقع ريبيل. أما بالنسبة إلى الرجل، فقد كان من الصعب على ريبيل أن تفهم لماذا تجاوبت معه بذلك الشكل، فهي لم تتعود على فقد اتزانها في أي موضع، ومع ذلك فقد أثار فيها من المشاعر ما جعل الأمر يخرج عن إرادتها... وهذا ما عقّد كل شيء.

دارت السيارة حول النافورة الحجرية لتقف عند أسفل الدرجات.. رفعت ريبيل بصرها إلى الباب الضخم، متوجّسة مما ينتظرها خلفه، ثم فُتح الباب وانطلق منه جسم صغير في ثوب أزرق. هفا قلب ريبيل إلى الطفلة على الفور... مهما يكن الأمر وما يؤدي إليه، فهذه الصغيرة الضائعة بحاجة إليها.

في الوقت الذي فتح فيه السائق باب السيارة لريبيل، كانت

سيليستي قد هبطت نصف الدرجات، وهي تصيح: «ها قد جئت!»

ثم وقفت فجأة عندما خرجت ريبيل من السيارة، وبدا عدم التصديق على الوجه الملائكي.

قالت ريبيل مبتسمة ابتسامة عريضة مشجعة: «جئت بكل تأكيد!»

ـ هل حقاً ستبقين هنا؟

ـ لم لا؟ هذا مكان حسن! وسأستمتع بالإقامة فيه. إنني مسرورة لأن عمك دعاني.

تجاوزت العينان الزرقاوان الكبيرتان ريبيل إلى حيث كان السائق يخرج الحقائب من السيارة، فلما اطمأنت إلى هذا البرهان، أخذت تنظر إلى ريبيل من فوق إلى تحت، متأملة حذاءها، والبنطون الجينز الأزرق الضيق والكنزة المتألقة.

لم تكن ملابسها تختلف كثيراً عما كانت تلبسه أمس. وقد تعمدت ريبيل ذلك كيلا تهتز الصورة التي انطبعت في ذهن الطفلة عنها فيما لو غيرت هيأتها. وكانت النظرة الراضية في عيني سيليستي خير مكافأة على بعد نظرها.

ثم أشارت الطفلة إلى الحيوانات الصغيرة البيضاء المحبوكة في كنزة ريبيل، تسألها:

ـ هل هذه أغنام؟

ـ نعم. وهي تصوّر قصة أغنية «والتزين ماتيلدا».

سألتها بشوق: «أية قصة؟»

عندما صعدتا الدرجات معاً، أخبرتها ريبيل عن أسطورة اللص الذي سرق خروفاً ليأكله. وعندما قبضت عليه الشرطة أغرق نفسه في النهر كيلا يؤخذ إلى السجن.

استقبلها بروكس عند الباب مرحباً، وبدت الدهشة البالغة على

رئيس الخدم العجوز الذي رأى سيليستي في أثرها وقد بدت عليهما السعادة.

كانت السيدة تومكنز في الردهة تنتظر ريبيل لتأخذها إلى غرفتها. فنظرت، هي أيضاً، بدهشة إلى الطفلة، وهي تغرق الزائرة بالأسئلة عن اللصوص.

دخلت ريبيل إلى غرفة رائعة في الطابق الأول، وهي أروع غرفة مكثت فيها في حياتها. كانت بمثابة جناح، يحتلُّ نصفه سرير فخم له أربعة أعمدة، وحوله أثاث ثمين قديم الطراز. أما النصف الثاني فكان بمثابة غرفة جلوس فيها حول مدفأتها مقاعد فخمة.. بالإضافة إلى منضدة وطاولة مكتب وجهاز تلفزيون ومكتبة مليئة بمجموعة كبيرة من الروايات. كانت السجادة السميكة وردية اللون، تتلاءم مع الأثاث الوردي والبنّي. وثمة غرفة للملابس، ملحقة بغرفة النوم، ومبطنة بالخزائن الجدارية، تؤدي إلى حمام مترف.

استنتجت ريبيل أن ضيوف دافينبورت هول كانوا مجهزين بكل وسائل الراحة والرفاهية التي بإمكان المال أن يشتريها.

أحضروا حقائبها، وعرضت مدبرة المنزل عليها خادمة لكي تعلق لها ثيابها وتقوم على خدمتها، لكن ريبيل ردت هذا العرض، مفضلة القيام بأمورها الخاصة بنفسها. والأهم أن تسكع الخادمة في أنحاء المكان سيعيق التقارب الذي تنشده مع سيليستي.

قالت مدبرة المنزل وهي تستعد للخروج:

ـ الغداء الساعة الواحدة، يا آنسة جايمس. وقد طلب اللورد دافينبورت أن توافيه مع ضيوفه الآخرين إلى غرفة الاستقبال حين تكونين جاهزة.

قالت ذلك مع بعض التشديد على كلمتي (ضيوفه الآخرين)،

ومع نظرة إلى ملابس ريبيل البسيطة تفصح عن عدم الرضا، تماماً كما فعل الماركيز أمس، ومع أن ريبيل كانت تؤمن بالمثل القائل «عندما تكون في روما، افعل كما يفعل الرومان» إلا أن نيل إعجاب ضيوف اللورد لم يكن هدفها. وفي الواقع، خشيت أن تفسر سيليستي الأمر على نحو سلبي إذا هي غيّرت ملابسها، فرسمت ابتسامة على شفتيها وقالت لمدبرة المنزل:

ـ شكراً، يا سيدة تومكنز.. سننزل حالاً.

ما إن توارت مدبرة المنزل، حتى سألت ريبيل الطفلة:

ـ هل تعرفين من هم ضيوف عمك الآخرون؟

ـ طبعاً أعرفهم!

قالت ذلك بلهجة مشاكسة، وهي ترمق ريبيل بارتياب بالغ، وبتمرد ظاهر. تابعت ريبيل تعليق ملابسها، متظاهرة بعدم الانتباه إلى غضب الطفلة. ثم سألتها بقليل من الاكتراث: «هل تحبينهم؟»

انفجرت سيليستي بعنف: «أنا أكرههم!»

وبهذا استقرت قضية الملابس. فإذا هي ارتدت ملابس كملابسهم، نفرت سيليستي منها دون شك. علماً أن ما ترتديه محترم تماماً في نظر الناس العاديين، وحدثت ريبيل نفسها بالمثل القائل: «قد يصنع الريش طيوراً ممتازة، لكن الملابس لا تصنع أناساً ممتازين» وهكذا تغلبت على رغبتها في نيل رضاء هاغ داڤينبورت.

نظرت ريبيل إلى سيليستي مقطبة بحيرة:

ـ يبدو أنك تكرهين كثيراً، يا صغيرة! وهذا ليس من الذكاء. هل لديك سبب لكراهية هؤلاء الناس؟

قطبت سيليستي جبينها، وأخذت تفكر كيف تنفي عن نفسها صفة عدم الذكاء، ثم قالت بانتصار:

ـ لدي أسباب كثيرة. السير روجر يضحك مني دائماً واللايدي هارييت زوجته تقول أشياء غبية، وسينتيا لاملي أفعى.

ـ أفعى؟

ـ نعم، وسترين!

ـ حسناً. سأنتظر وأرى.

وإذ كانت تعلم أن الأولاد أكثر فطنة وأقوى بصيرة مما يظن الكبار، سألتها: «كم عمرك؟»

ـ سبع سنوات.

ـ وسنتيا لاملي هذه، هل هي من عمرك؟

ـ لا! إنها كبيرة. إنها تلاحق عمي هاغ. وهي تظن نفسها ذكية. لكنني أكرهها أكثر من الآخرين.

هذا يعني أن سنتيا لاملي تهدد ما لدى سيليستي من إحساس ضئيل بالأمان. كما أن مسألة سنتيا لم تعجب ريبيل أيضاً، ولكن رؤية هاغ داڤينبورت مع امرأة أخرى... امرأة من نوعه.. قد يساعدها على الثبات في موقفها منه.. وابتسمت لسيليستي:

ـ حسناً، سرعان ما سأكتشف بنفسي مبلغ ذكائها.

دخلت إلى الحمام وألقت نظرة على شعرها وحمرة شفتيها، ثم ألقت نظرة أخرى في المرآة الكبيرة في غرفة الملابس طمأنتها إلى أناقتها العفوية. وبعد ذلك دخلت غرفة النوم ومدت يدها إلى سيليستي باسمة مشجعة:

ـ هيا بنا. حان الوقت لكي نتقدم ونكافح جيداً، الهدف هو أن لا ندع أحداً يهزمك.

نظرت سيليستي إلى يد ريبيل مترددة، ثم قررت أن تجرب حظها معها، فسألتها:

- وكيف تفعلين ذلك؟

أمسكت ريبيل بيد الطفلة وهما تهبطان السلم إلى غرفة الجلوس، وقالت تشرح لها:

- عليك أن تدركي أولاً ما الذي يحدث حولك. السير روجر، مثلاً، لا أعرف شيئاً عنه بعد، ولكن كثيرين من الناس يضحكون حين لا يعرفون ما عليهم أن يقولوا أو يفعلوا. الضحك يغطي ارتباكهم حين يشعرون بعدم الثقة في أنفسهم. وهذا لا يعني، بالضرورة، أنهم يرون شيئاً مضحكاً.

قالت الطفلة مفكرة: «تعنين أنهم ليسوا أذكياء؟»

- هذا صحيح. لقد فهمت بسرعة. ولكن ليس من الكياسة أن تقولي لهم ذلك لئلا يشعروا بمزيد من الحرج. وهكذا ابتسمي لتجعليهم يشعرون بالراحة، وبهذه الطريقة تنتصرين، لأنهم سيرونك فتاة طيبة ذكية، وستشعرين أنت بالسرور لأنك أدخلت السرور إلى قلبهم. نفس الشيء ينطبق على الأشخاص الذين يقولون أشياء غبية، هم لا يريدون حقاً أن يقولوا الأشياء الغبية، ولكنهم معظم الوقت لا يعرفون ما عليهم أن يقولوا. . ولهذا يقولون أي شيء يخطر ببالهم.

- وهل تبتسمين لهم أيضاً؟

ضحكت ريبيل: «بالتأكيد، هذا يجعلهم يشعرون بالسرور، وبهذا تنتصرين أيضاً».

- وماذا بالنسبة للناس الشبيهين بالأفاعي؟

- الابتسام هو الأفضل، لأنهم، حينذاك، لن يستطيعوا أن يدركوا ما إذا آذوك أم لا. الناس الأفاعي يحبون أن يدركوا أنهم آذوك، وهكذا تهزمينهم بعدم إظهار ذلك، فالابتسامة تجعلهم يظنون أنهم خسروا.

- لكنهم يسببون الأذى!

- نعم. أحياناً يسببون ذلك. عليك أن تصبري، لكن معرفة الوقت المناسب أمر صعب جداً، ومن الأفضل أحياناً أن تنتظري فترة، وبعد ذلك تقومين بالضربة الحاسمة.

رددت سيليستي مفتونة: «الضربة الحاسمة؟»

كانتا قد وصلتا إلى باب غرفة الاستقبال، فقالت لها ريبيل:

- سأخبرك عن ذلك في وقت آخر، وعلينا الآن أن نجهّز ابتساماتنا. كيف ترين هذه؟

وحاولت ريبيل أن ترسم على فمها أحسن ابتسامة إعلان عن معجون أسنان.

أخذت سيليستي تضحك وهي تومئ استحساناً، فتابعت ريبيل

- إنه دورك الآن!

فلما أظهرت الصغيرة صفاً منتظماً من الأسنان قالت لها: «هذا حسن! فلندخل الآن بهذه الابتسامة».

أثار دخولهما غرفة الاستقبال انتباه جميع الحاضرين. وعندما انقطع الحديث وساد الصمت، شعرت ريبيل بأصابع سيليستي تتوتر، فشدّت على يدها بخفة تطمئنها، بينما تجاوزت نظراتها الحاضرين لتستقر على هاغ دافينبورت. كان واقفاً أمام المدفأة مع آخرين، لكنه استحوذ على انتباهها بأجمعه، واشتبكت عيناه بعينيها ينفذ بهما إلى أعماقها.

كان يرتدي بذلة بثلاث قطع، ذات لون أزرق قاتم، وربطة عنق فضية رمادية تبرز بياض قميصه الناصع، وأظهرت ملابسه لونه الأسمر الجميل الأخّاذ، وهذا ما جعل قلب ريبيل يخفق بعنف.

انحدرت نظراته فجأة، بعدم تصديق، إلى يد سيليستي الممسكة

بيدها. قطب حاجبيه وهو حوّل نظراته إلى بنطلون ريبيل الجينز ثم عاد لينظر إلى وجهها مستفماً. تعمدت ريبيل تجاهل خفقات قلبها وأضافت مزيداً من التألق إلى بسمتها التي استجاب لها، ثم قال بلطف:

- يسرنا أن تكوني بيننا رة أخرى، يا ريبيل.

ورفع حاجبيه قليلاً: «رجو أن تكون سيليستي قد رحبت بك».

فأجابت ريبيل وهي تسم للصغيرة ابتسامة ذات معنى:

- كثيراً جداً، في الواقع.

أما سيليستي فابتسمت لعمها باعتداد وقالت:

- إنني أعرف الآن قة «والتزين ماتيلدا». القصة محبوكة على كنزة ريبيل!

فتركزت كل الأعين عى صدر ريبيل.

- ما أغرب هذا!

انطلق هذا التعليق بعوبة من الشقراء الرشيقة التي عرفت ريبيل فيها على الفور «سينتيا لامي».

- لائقة جداً!

قال السير روجر ذلك ثم أطلق ضحكة ارتباك عندما أدرك أنه أطال النظر إلى صدر ريبيل

- إنهم يفعلون أشياء رعة جداً هذه الأيام!

اندفعت اللايدي هاريت بهذا القول، فتمتم هاغ دافينبورت:

- فهمت!

وألقى على ريبيل نظر ساخرة كأنه يقول لها: «تأثيرك هذا على الطفلة لن يدوم».

بادلته ريبيل النظرة بابتسامة وكأنها تقول: «بل سيدوم.. وسأنجح!»، ولكن في هذا الوقت ارتفعت خفقات قلبها، لأنه أشعل

فيها ناراً لا يمكن أن تخمد، رغم كل ما أوحت به إلى نفسها من التزام الهدوء والبرودة.

نظراتهما المتبادلة الحافلة بالمعاني، لم تغب عن ملاحظة سينتيا لاملي التي أطلقت ضحكة رنانة لكي تجذب الانتباه إلى نفسها.

- إننا نُربك ضيفتك، يا هاغ! ألن تعرفنا ببعضنا بعضاً؟

- أشك في أن شيئاً قد يربك ريبيل، فلم أعرف شخصاً يمكنه التصرف مثلها.

وغمز بعينه تحدياً وهو يجرها إلى الجماعة: «لا أظنك مرتبكة!»

- على الإطلاق!

قالت ذلك بمرح، فنظر إلى ابنة أخيه بجد:

- أرجو أن تتذكري ما قلته لك، يا سيليستي!

أجابت باستياء: «نعم، يا عمي!»

استنتجت ريبيل بسرعة أنه كان قد حذر ابنة أخيه من سلوكها، فشدّت على يد سيليستي بمودة. رفعت إليها الصغيرة وجهاً متجهماً، قابلته ريبيل بابتسامة مشرقة. وسرعان ما افترّ ثغر الصغيرة عن ابتسامة مشابهة، فعادت ريبيل تشدّ على يدها استحساناً، فأجابتها الصغيرة بمثل حركتها كدليل على التفاهم.

بدت الحيرة واضحة على وجه هاغ دافينبورت بسبب هذا التفاهم الخفيّ بينهما، وقطب جبينه لهما، فقابلتاه بابتسامتين ثابتتين، فهز كتفيه ثم مضى في إجراء التعارف بينهم.

كانت اللايدي هاريت ثرثارة فعلاً.

- ما أجمل أن أتعرف إليك... وكذلك سباق المناطيد. كان هاغ يخبرنا لتوه عن ذلك. إنك قادمة من أستراليا؟ يا له من مكان بعيد!

قال السير روجر: «إنه في الطرف الآخر من العالم، كما يقولون

يا عزيزتي».

ثم ضحك وهو يهز يد ريبيل، ومنحته ريبيل ابتسامة واسعة إضافية، خشية أن تكون سيليستي تنظر إليهما.

لم يكن هناك حاجة لأخذ الحذر منهما فهما شخصان مريحان في الأربعينات من العمر، شخصين مريحين، لا يحيط بهما جو من ادعاء العظمة. ملابسهما أنيقة، والحلية المرصعة باللؤلؤ والياقوت على طقم اللايدي هارييت تبدو حقيقية.

عرفت أن سينتيا لاملي هي ابنتهما، ولكنها مختلفة عنهما تماماً. فهي طويلة رشيقة، في الطقم الحريري الأبيض، وشعرها الأشقر مقصوص ببراعة، فيما أبرز الكحل جمال عينيها الزرقاوين. لكن سحرها كان موضع شك منذ البداية.. ما إن جلسوا جميعاً، ريبيل وسيليستي على أريكة واحدة، والسير روجر وزوجته اللايدي هارييت قبالتهما، وسينتيا وهاغ على كرسيين متجاورين، حتى ابتدأت التلميحات الخبيثة. فقد قالت سينتيا متأملة:

ـ يبدو لي اسم غريفيث جايمس مألوفاً.

أجابت ريبيل بجفاء:

ـ لا أظن ذلك ما دمنا لم نتقابل قبل الآن. غريفيث هو اسم أمي، وجايمس اسم عائلتي.

ـ آه، إنه مميز جداً! وهو لا يبدو من أسماء سكان المستعمرات على الإطلاق.

قالت ريبيل في نفسها: «إن سيليستي على صواب، فهي أفعى حقيقية»، ثم ابتسمت ريبيل بعذوبة خالصة:

ـ أخشى أن الزمن قد تجاوزك، يا آنسة لاملي، لأن أستراليا لم تعد مستعمرة إنكليزية وذلك منذ أكثر من مئة عام.

رأت ريبيل من زاوية عينها شفتي هاغ تلتويان.

أطلقت سينتيا ضحكة رنانة: «طبعاً، لكن انكلترا ما زالت تعتبر البلد الأم، أليس كذلك؟»

لو أن هذا الادعاء جاء بلهجة أقل استعلاء، لأجابت ريبيل بنعم، فهناك روابط تقليدية وعاطفية ببريطانيا. لكنها لم تشأ أن تصنّف مواطنة من الدرجة الثانية، وإن أرادت سينتيا لاملي أن تثبت تفوّقها، فعليها أن تقوم بذلك عن استحقاق وجدارة شخصيين، وليس على أساس المواطنية، لذا سألتها:

ـ ألم تذهبي قط إلى أستراليا، يا آنسة لاملي؟

ـ يا إلهي، لا!

وهزت كتفيها باستهزاء ثم أضافت: «فهي في آخر الكرة الأرضية».

قالت ريبيل بنفس لهجة الاستهزاء، ولكنها حلّتها بابتسامة عريضة:

ـ إنها وجهة نظر، بعض الناس يعتبرون استراليا بداية الكرة الأرضية. وهي بلاد أقدم كثيراً من بريطانيا، ويتميز شعبها بطابع فريد. أظنك ستجدينها مختلفة جداً عن انكلترا، باستثناء أنواع قليلة من الرياضة والنظام السياسي.

فتدخل هاغ موافقاً رأي ريبيل:

ـ هذا صحيح.

والتفت إلى الشقراء ثم أضاف: «إذا ذهبت إلى هناك، لا تتوقعي أن تجدي نسخة عن انكلترا، يا سينتيا، إنها بلاد أجنبية حقاً».

ـ وهل كنت هناك، يا هاغ؟

لم تنجح سينتيا في محاولة الحط من شأن ريبيل، فركزت

محاولتها على جذب انتباه مضيفها، وانهالت عليه بأسئلة لا تنتهي، عن رحلته إلى أستراليا بصفته خبيراً في الألبسة، وشعرت ريبيل بالسرور عندما قال هاغ إن بعض المصممين الاستراليين من أفضل المصممين العالميين. من المؤكد أن مديحه لبلادها هو أكثر من مجرد فض نزاع إزاء تبجح صديقته.

على كل حال، لم تكن سينتيا مهتمة بموضوع تستطيع ريبيل الاشتراك فيه وهكذا تحولت إلى الحديث عن رحلتها الأخيرة إلى فرنسا، لتبعد ريبيل عن الحديث ولتبقي انتباه هاغ مركزاً عليها هي.

كانت ماهرة ونجحت في ذلك. ولكن ريبيل تأكدت في الوقت عينه من أن لا مودة تربط هاغ دافينبورت بسينتيا لاملي.. كان مهذباً ظريفاً وقد يراها زوجة مناسبة، لكنه ليس مغرماً بالأفعى الشقراء هذه. وريبيل تعرف كيف يبدو الحب، وذلك من خلال مراقبتها لسلوك صهرها مع أختها تيفاني.

هذا الأمر لا يخصها بشيء في ظروف عادية، ولكنه سيكون كارثة بالنسبة إلى سيليستي، التي ستصبح تحت سيطرة سينتيا لاملي. وأخذت ريبيل تأمل في أن يكون لدى هاغ، من التعقل، ما يجعله يرى ذلك.

دخل بروكس ليعلن جهوز الغداء، ثم سار أمامهم إلى غرفة طعام متألقة غير رسمية. كان الأثاث عصرياً وأبيض، والغرفة أنيقة رحبة، تطل نوافذها على حديقة ورود.

جلس المضيف على رأس المائدة البيضاوية الشكل وسينتيا إلى يمينه، وأمها اللايدي هارييت إلى يساره. أما ريبيل فجلست بجانب سينتيا ومقابل السير روجر، وبينهما سيليستي في مواجهة عمها، لكن سينتيا قررت، فجأة، التدخل في هذا الترتيب.

ـ تعالي يا عزيزتي سيليستي واجلسي بجانبي، فأنت هذا النهار فتاة طيبة للغاية، ملاك صغير حقيقي.

قالت ذلك بابتسامة تظهر تسامحاً مريباً، ومدّت يدها إليها، وفي نيتها اختبار ولاء الطفلة لريبيل.. أو إثارة مشهد غاضب ينتهي بالاثنتين، ريبيل وسيليستي، إلى الهزيمة. ولكن ريبيل شدّت على يد سيليستي بقوة، فنظرت إليها الطفلة وفي عينيها تمرد بالغ، فواجهتها ريبيل بالابتسامة المعهودة، المتفق عليها، ثم قالت بلهجة ذات معنى:

ـ سيفتقد السير روجر جوارك، يا سيليستي. لكنني سأبقى شاعرة بسرورك لوجودك بجانبي.

فضحك السير روجر، بينما كشرت سيليستي عن أسنانها لسينتيا بشبه ابتسامة، تبعاً للتدريب الذي تلقته. على كل حال، تجاهلت سيليستي بثبات اليد الممتدة إليها.. تنهدت سينتيا بخيبة أمل، ونظرت إلى هاغ وكأنها تقول له إنها حاولت جهدها ولكن الطفلة صعبة جداً.

لم يبادلها هاغ نظرتها. كما أنه لم ينظر إلى ريبيل متحدياً، بل تحوّل إلى اللايدي هارييت ودخل معها في حديث عن مهرجان كانت تنظمه. ففهمت ريبيل أن كنيسة القرية بحاجة إلى إصلاح وأن اللايدي هارييت رأست اللجنة المسؤولة عن جمع الأموال المطلوبة، واستمر الحديث عما يمكن عمله، خلال تناول الطعام المؤلف من الخضار والحساء والروستو. لم تهتم ريبيل بالمشاركة في تبادل الآراء عن جمع الأموال، وكلما ضحك السير روجر، كانت هي تتبادل الابتسام مع سيليستي، جاعلة من ذلك لعبة خفية بينهما، وطريقة لشد اهتمام الطفلة وتسليتها.

لم يفت هاغ داڤينبورت ملاحظة هذا التآمر الخفي، فكان أحياناً يرمق ريبيل بنظرة فاحصة. ولم يفت هذا أيضاً سينتيا لاملي، التي شعرت بالتحدي والتهديد، فحوّلت سهامها المسمومة إلى ريبيل مرة أخرى.

ـ أنا واثقة من أن لديك بعض الأفكار الهامة بالنسبة إلى المهرجان، يا آنسة جايمس، عملك في سباق المناطيد يوحي بخبرتك الواسعة في المجالات الخيرية.

رمقت ريبيل هاغ داڤينبورت بنظرة حادة متفحصة، متسائلة عما إذا تعمد تضليل ضيوفه عن عملها في انكلترا، ليتقبلوا وجودها هنا.. إن هذا الشموخ على الطبقة العاملة أغضبها، فكان أن حملتها الكبرياء على الإصرار على التصحيح:

ـ لا بد أنك أسأت فهم ما قاله لك اللورد داڤينبورت، يا آنسة لاملي، صحيح أن السباق نفسه هو لفائدة الأعمال الخيرية، إلا أن عملي فيه تجاري بحت. وسأحصل على أجر معتبر مقابل تأمين عدد معيّن من المشتركين.

رفعت سينتيا حاجبيها وقالت ببطء:

ـ آه، فهمت. إذن أنت فتاة عاملة، يا آنسة جايمس!

ابتسمت ريبيل وهي تلاحظ ما تضمنته لهجة الشقراء الثعبانية من معانٍ:

ـ إذا كنت تعنين أنني أستمتع بالمهنة التي صنعتها لنفسي، فهذا صحيح. أما إذا كنت تعنين أنني مكرسة حياتي لها، فهذا غير صحيح، فأنا لا أريد أكثر من أن أتزوج رجلاً أحبه، ومن أن أنشئ أسرة كبيرة جداً.

لم تكترث سينتيا لهذا الجواب على الإطلاق، لكن هاغ

داڤينبورت أبدى بعض الاهتمام. وشنّت الشقراء هجوماً آخر فقالت بعذوبة:

ـ نظراً لمشاكل السكان في العالم، لا يبدو أن الضمير يسمح اليوم بإنشاء أسر كبيرة، يا آنسة جايمس.

أطلقت ريبيل ضحكة رقيقة:

ـ يا آنسة لاملي، لقد نشأت في أسرة كبيرة جداً ذات حس اجتماعي ربما يفوق ما لدى أية أسرة أخرى في العالم. وفي الواقع، يمكنك أن تسميها أسرة دولية، حيث أن كثيراً من أخوتي وأخواتي أتوا من بلاد مختلفة.

أربك هذا الجواب سينتيا، لكنه أثار فضول اللايدي هاريت فسألتها:

ـ ماذا تعنين؟

ابتسمت ريبيل، وقد انتبهت إلى أن كلامها قد أثار اهتمام هاغ أيضاً، وأملت ريبيل أن يفهم من ذلك أن خبرة حياتها قد زودتها، حقاً، بمعرفة خاصة بكيفية معالجة الأطفال المصدومين.

ـ كنا، أربعة عشر طفلاً متبنين، يا لايدي هاريت. «زاكاري لي» جاء من أميركا، «تافاني ماكانا» من فيجي، «كارول» «وآلان تاي» من ڤيتنام، «زوانغ تشي» من الصين، «محمد ولياه» من الهند، «روزالي» من الفيليبين، «كيم» من كوريا، «شاستي» من أثيوبيا، «سوزان» من كندا، «جوزيف» من تايلاند و«توم» من سكان أستراليا الأصليين.

أشاعت هذه القائمة سكوناً مذهلاً.

نظرت ريبيل إلى هاغ داڤينبورت. وحدّق هو إليها يقوّمها بحدة بالغة. شعرت بالانتصار والرضى، لأن ذلك سيعلّمه ألا يطلق على الناس حكماً عاماً.

سألتها اللايدي هاربيت: «وأنت؟ من أين جئت؟»

ـ لقد ولدت في أستراليا، ولكنهم كانوا يشيرون إليَّ دائماً بصفة «الإنكليزية التي تحب الأسرة». فأمي إنكليزية، وعندما تبنتني أسرة جايمس، كانت لهجتي إنكليزية بحتة.

قال السير روجر مسروراً: «شيء مثير للاهتمام».

وقالت اللايدي هاربيت وهي تهز رأسها بحيرة:

ـ كيف استطاع أبواك أن يعالجا أمر مثل هذا الخليط؟

اخترقت عينا ريبيل العينين السوداوين اللتين تواجهانها، وصممت على الوصول إلى الهدف وهي تجيب ببطء:

ـ بالحب، والاهتمام الكبير.

لكن سينتيا لاملي لم ترض بأن تجلس صامتة وتدع ريبيل تتحدث وكأنها المرجع والخبير في أي شيء. فسألتها باهتمام:

ـ ماذا حدث لأبويك الحقيقيين، يا آنسة جايمس؟

أجابت ريبيل ببساطة:

ـ فقدتهما. لقد فقدنا جميعاً آباءنا الحقيقيين قبل التبني.

ـ ولكن لا بد أنك تتذكرين أمك ما دمت تعلمت اللهجة الإنكليزية منها.

ـ ماتت عندما كنت في الخامسة.

ـ وأبوك؟

ـ لم أعرفه قط.

فقالت سينتيا بتعاطف كاذب:

ـ وضع محزن! هل مات قبل ولادتك؟

نظرت ريبيل في عينيها مباشرة، لكنها لم تستطع منع نفسها من الابتسام:

ـ لا! لقد هجر أمي قبل ولادتي، ولا أعرف ما إذا كان أبي الحقيقي حياً أم ميتاً. كما لا أعرف من هو وماذا كان.

وشعرت برغبة في أن تقول إنها لا تهتم بذلك! وإنه لا يعني لها شيئاً! لكنها تعلم أن هذا غير صحيح، فهي تهتم بذلك طبعاً. من غير الطبيعي أن لا تهتم ولا تشعر بالهجران، فهذه كانت مشكلة عليها أن تتعود عليها.

بدا الانتصار والرضا على ملامح سينتيا، وبدت أكثر اعتداداً بنفسها بعد أن كشفت عن نسب ريبيل المتواضع. ثم قالت:

ـ كم هذا مؤلم بالنسبة إليك!

أوشكت ريبيل على القول بأن أباها بالتبني ملأ تماماً تلك الثغرة في حياتها، عندما تدخلت سيليستي.

إذ مدت الصغيرة يدها وألقت بكأس مائها إلى حيث استقر في حجر سينتيا. إنها «ضربة قاضية» موفقة، لكن اختيار الوقت كان سيئاً للغاية. صرخت الشقراء وهي تقفز عن كرسيها:

ـ آه، يا للطفلة الخبيثة! فعلت هذا متعمدة!

هبّ هاغ دافينبورت واقفاً، وتوترت ملامحه وهو ينظر إلى ابنة أخيه بعينين ملتهبتين. لكن سيليستي حملقت فيه بتمرّد.

لم يكن هناك سوى طريقة واحدة لتجنب الكارثة. اندفعت ريبيل عن كرسيها، وبحركة سريعة خفية دفعت كأس العصير الذي أمامها فوقع في حجر سيليستي.

ـ آه، يا إلهي! أنظروا ما فعلته أنا الآن!

صرخت بذلك، محوّلة غضب هاغ دافينبورت عن الطفلة، وكان على وشك الانقضاض عليها بالتعنيف.

أخذت ريبيل الطفلة بين ذراعيها، وهي تقول بسرعة وهلع

بالغين:

ـ يا لها من فوضى أحدثناها بحركاتنا الثقيلة! أرجو أن تعذرونا جميعاً، سآخذ سيليستي إلى غرفتها لتغيير ملابسها، فالعصير سيترك بقعة دائمة إن لم يغسل الثوب بسرعة، أنت محظوظة يا آنسة لاملي لأن ما أصاب ملابسك هو الماء فقط.

وأسرعت إلى الباب قبل أن تستيقظ سيليستي من صدمة هذه الخطة وتفسد المشهد بأكمله بتمردها ونوبة غضبها المفاجيء، وقبل أن تخرج ريبيل توقفت لحظة ألقت فيها نظرة اعتذار إلى الموجودين الذين سادتهم الفوضى. كانوا جميعاً يحدقون في أثرها.. سينتيا بحقد، السير روجر وزوجته اللايدي هاريت بدهشة، وهاغ دافينبورت بعينين يتطاير منهما الشرر.

وجرّبت ريبيل آخر لمسة ديبلوماسية:

ـ أنا آسفة جداً لما حدث، يا هاغ. أرجو، يا لايدي هاريت، أن يصادف مهرجان الكنيسة نجاحاً كبيراً. سير روجر، وآنسة لاملي، كان تعرفي إليكما حدثاً جميلاً، وربما نجتمع ثانية في وقت آخر.

وقبل أن يستطيع أحد منهما أن يجيب بشيء، كانت ريبيل قد خرجت، حاملة سيليستي بعيداً عن مركز الأزمة. قد يكون الهرب جبناً، ولكنه قد يجعل الشخص يعيش يوماً آخر ليحارب.

* * *

٥ ـ حب أم كراهية؟

لم يكن عصر ذلك اليوم سهلاً، فقد اعتبرت سيليستي ضربتها القاضية بحق إملي عادلة تماماً، فلم تهتم لما قاله العم هاغ ولا أي شخص آخر. فسينتيا لاملي في نظرها أفعى خسيسة آلمت ريبيل وجعلتها لا تبتسم.

وعندما شرحت ريبيل لها بأن ذكرى الزمن الماضي السيء هي التي آلمتها، وليس أفعوانية سينتيا لاملي، لم تقتنع سيليستي. وعلى كل حال، وافقت أخيراً على أن تدع ريبيل، من الآن فصاعداً، تكافح بالنيابة عنها، لكنها بقيت غير آسفة لسكبها الماء على ثياب سنتيا. ولأن ريبيل في أعماقها، غير آسفة أيضاً، أهملت الموضوع.

نزهة طويلة في أنحاء المزرعة، بدت أفضل ما يمكن للابتعاد عن المزعجات. كانت الممرات بين الأراضي تؤدي إلى حدائق متنوعة تحيط بها الأسيجة، وخلف ملعب «الكروكيت» كان هناك بحيرة يشرف عليها مستودع الغاز حيث حبست سيليستي المربية. لكن ريبيل امتنعت عن ذكر هذا الأمر، فما يهمها الآن هو مستقبل الطفلة وليس ماضيها.

حدثتها ريبيل عن أسرة جايمس وعن كيفية تبنّي كل طفل في الأسرة.

ساد صمت طويل أخذت سيليستي أثناءه تطيل التفكير في ما

سمعته.. لم تحاول ريبيل معرفة ما تفكر فيه الطفلة. بل كانت ترجو أن تدرك سيليستي أن هناك أطفالاً كثيرين أسوأ حالاً مما هي عليه، ولم تدرك ريبيل مدى الحرمان الذي تعرضت له سيليستي إلا عندما حان وقت نوم الطفلة.

وجهتهما مدبرة المنزل إلى غرفة المكتبة لكي تقول سيليستي لعمها تصبح على خير. إن هذه الغرفة تنتمي إلى عصر مضى، فجدرانها مبطنة بخزائن كتب ذات أبواب زجاجية، وأرضها الفسيحة مؤثثة بثلاثة مكاتب مهيبة وبعدد من المقاعد الجلدية الضخمة المطعّمة بالصدف. خرائط، ومجسم كرة أرضية قديم، وآخر جديد، وقواميس ضخمة على حوامل للقراءة، وعدد من الموسوعات.

كان هاغ داڤينبورت جالساً إلى المكتب الرئيسي، يتصفح سجلاً كبيراً. عندما رفع بصره ورأى من دخل، نهض واقفاً ببطء، وقد بدت ملامحه هادئة رزينة.

سأل ريبيل بأدب عما إذا استمتعت بالنزهة، ثم انحدرت نظرته إلى ابنة أخيه:

ـ لا تظني أنني لم أر ما فعلته على مائدة الغداء اليوم، يا سيليستي. لقد أرادت ريبيل أن تحميك، ولأنها ضيفتنا، وهذا ما أرادته، فأنا أمنحك فرصة أخرى. أما إذا تكرر ذلك التصرف غير المهذب، فستكون وجباتك في المطبخ في المستقبل. هل هذا واضح؟

انفجرت سيليستي بتمرد: «هذا لا يهمني!»

نظر إلى ريبيل ساخراً من قناعتها بإمكانية تحسين سلوك الطفلة، ثم عاد ينظر إلى ابنة أخيه:

ـ سواء أكان ذلك يهمك أم لا، يا سيليستي، فإنه لا يغير شيئاً

في الموضوع. إما أن تطيعي ما يقال لك، وإما أن تتحملي النتائج.

ـ جاءت سيليستي لتقول لك تصبح على خير، يا هاغ.

قالت ريبيل ذلك قبل أن تتمادى الطفلة في عصيانها وتحديها لعمها. وشدّت على يد سيليستي:

ـ قولي تصبح على خير، يا سيليستي.

ساد صمت متوتّر، وقف خلاله هاغ داڤينبورت بوجه كأنه تمثال حجري بارد. أرادت ريبيل أن تصرخ في وجهه بأن ابنة أخيه طفلة وليس عليه أن ينظر إليها باستعلاء ويعاملها بجفاء.

جاءت الكلمات أخيراً مرغمة بصوت مرتجف:

ـ تصبح على خير، يا عمي هاغ.

أومأ بلطف: «تصبحين على خير، يا سيليستي».

وهكذا انتهى الأمر.

لقد طردها ببرودة ثلجية، ومن دون عناق أو قبلة!

جاهدت ريبيل لاستعادة الفوز بثقة الطفلة. وضعتها في سريرها وقصت عليها حكاية طويلة مثيرة عن لصوص الأدغال الأستراليين في عهد الاستعمار، ولكن لم يكن هناك تجاوب في العينين الزرقاوين الكبيرتين اللتين كانتا تحدقان في ريبيل، وكأنها تنتظر أن تنتهي ثم تخرج. وعندما انحنت لكي تقبل الطفلة تحية المساء، انكمشت سيليستي بعيداً عنها، مخبئة وجهها في الوسادة، فسألتها:

ـ هل أفزعتك بتلك الحكاية؟

التفتت إليها بعنف: «أبداً! فقط أردت أن أنام».

ـ لا بأس. ولكن قبل أن تنامي علينا أن نتعانق ونتبادل القبلات.

قالت الطفلة بغضب: «هذا ليس ضرورياً!»

تنهدت ريبيل: «أظنك لا تحسنين العناق، هل هذه هي

المشكلة، يا صغيرة؟ لأنك لم تتمرني على ذلك؟»

ساد صمت بدا معه وجه الصغيرة متوتراً مغلقاً، فتابعت ريبيل:

ـ العناق والتقبيل أشبه بالقتال، فإذا أردت أن تكوني ماهرة في ذلك، فعليك أن تتدربي عليه. في نهاية كل يوم، علينا أن ننسى كل الأشياء السيئة التي حدثت. ولكي تفعلي ذلك يجب أن يعانقك أحد ويقبلك، وإلا ستشعرين بوحدة مفزعة في العالم.

وأخذت ريبيل تدس يدها تحت كتفي الطفلة: «إذا أنت وضعت ذراعيك حول عنقي، يمكننا أن نتعانق جيداً».

بدا الذعر على وجه الطفلة، لكنها مدت يديها بتردد، فأخذتها ريبيل بين ذراعيها قبل أن تغير رأيها، وأخذت تهزها وتضمها إليها بشدة، بينما الذراعان الصغيرتان تلتفان حول عنقها. وهذا ما جعل ريبيل تتأكد من أن أحداً لم يعانق هذه الطفلة أو يقبلها قط قبل النوم، ولكن هذا غير ممكن! لا بد أن أمها أو أباها قد أظهرا لها بعض العطف.

تذكرت أن سيليستي قالت بأنها لم تهتم حين ماتا. فهل كانت ستقول ذلك لو كانا أظهرا لها عطفاً وحناناً؟ وقررت ريبيل أن هناك الكثير مما ينبغي مناقشته مع هاغ داڤينبورت هذه الليلة، بعد أن تستقر الطفلة في فراشها وتنام.

ـ هممم... رائحتك جميلة!

تمتمت بذلك وهي تدعك وجهها بشعر الطفلة الحريري الأشقر، ثم مدّت الطفلة على فراشها برفق بالغ، وهي تبتسم لها: «والآن سأقبلك. (وطبعت قبلة رقيقة على جبين الطفلة) وعليك أن تقبليني».

فهمست الطفلة وهي تلهث:

ـ لا أستطيع الوصول إلى جبينك.

ـ وماذا عن قبلة الخد؟ إنها جميلة!

اشتدت يدا سيليستي حول عنق ريبيل وهي تحاول أن تنهض لتقبل وجنتها، ثم هبطت على فراشها. فابتسمت ريبيل:

ـ أنت تتعلمين بسرعة! تصبحين على خير، يا سيليستي!

للمرة الأولى نادتها ريبيل باسمها، وخشعت عينا الطفلة بسرور عظيم. ثم، وكأنها خافت من أن يسلب منها هذا الشعور، أغمضت عينيها ودست وجهها في الوسادة.

أطفأت ريبيل النور وغادرت الغرفة، راضية لهذه الخطوة العملاقة التي قامت بها في هذا الطريق الصعب. ولكن ما زال أمامها خطوات.

بعدما تناولت ريبيل الشاي عصراً مع سيليستي، أخبرتها الخادمة بأن العشاء يكون عادة في قاعة الطعام الكبرى تمام الساعة الثامنة. الساعة الآن السابعة، ولدى ريبيل متّسع من الوقت لإعداد خطتها.

المظهر الحسن ضروري لعملها. ولهذا أنفقت مبالغ كبيرة على شراء ملابس جيدة، ولأنها تريد أن تليّن موقف هاغ، ارتدت أجمل ثيابها، وباتت راضية جداً عن مظهرها.

كان ثوبها الحريري يتماوج بين الأصفر والبرتقالي، وقد فُصّل بطريقة تكشف عن بعض مفاتنها الأنثوية، وألوان الثوب أضفت جمالاً على لون بشرتها وزادت من اللمعة الذهبية في عينيها العسليتين وشعرها البني الكثيف الجعد. هذا عدا العطر الذي تعطرت منه.

وجدت هاغ داڤينبورت في غرفة الاستقبال، كان يسكب لنفسه كوباً من العصير عندما وقع بصره عليها، فتوقف دهشاً.

تنقلت نظراته فوق جسدها الفتيّ الممتلىء، والمغري في هذا الثوب الناعم الهفهاف. واستمر افتتانه بمنظرها هذا عدة ثوان. أخيراً

تغلب عليه تهذيبه، فانحدرت نظراته إلى حذائها الأصفر العالي الكعب قبل أن تعود إلى وجهها. قال برقة:

ـ وكأنك مثل روح الصيف، وبهجة العين.

كانت مجاملة بديعة. والطريقة التي نظر فيها إليها بعثت الاضطراب في داخلها، وكادت تطيح بما صممت عليه، لكنها تشبثت بغرضها وقالت:

ـ شكراً. وإذا كان ثمة ضيوف هذا المساء فأرجو أن يكون لهم نفس الرأي. وإن كان لا يهمني في الحقيقة أن يعتبروني من الطبقات الدنيا في المجتمع.

أجاب باهتمام: «إذا أخطأ أحدهم في إصدار حكم صائب فسرعان ما يكتشف خطأه. فلديك موهبة واضحة في ذلك، أنا معجب بها».

كان لهذه المجاملة الثانية وقع عذب في نفسها، فالإعجاب بأنوثتها شيء، والتقدير والاحترام لمواهبها شيء آخر يعني لها الكثير. تذكرت جيداً مدى تعاستها حين كانت تشعر بأنها منبوذة من بقية العالم، والواقع أنها لم تصل إلى الثقة بالنفس بسهولة. وأن تجد شخصاً في مركز هاغ داڤينبورت يعترف بها شخصاً يحسب له حساب ويركن إليه، هو بلسم لكثير من جراح قديمة. انجذابها العاطفي نحوه أثار اضطرابها، ثم اتخذ فجأة بُعداً آخر.

تألق وجهها حين رأته يبتسم. إنه يبتسم حقاً!.. وأخذ قلبها يرعد في أذنيها.

ـ هل تريدين شراباً؟ أحبذ لك عصير البرتقال.

ـ نعم، شكراً.

ثم أخذت تقلّب الأمر في ذهنها. أرادت أن تستغل مزاجه

المنشرح لمصلحة سيليستي أولاً، وفيما كان يتناولها كوب العصير أضافت:

ـ وشكراً لدعمك لي إزاء غطرسة الآنسة لاملي.

نظر في عينيها مازحاً متحدياً:

ـ أنا أعرف مبلغ صلابتك في المواجهة. وربما كنت أحميها هي من خصم منيع للغاية.

قالت بلهجة حاسمة، مزيحة جانباً هذه الدعوة المفتوحة للغزل: «لا أعتقد ذلك».

ـ لماذا؟

ـ لأنك وقفت بجانبي.

ـ ربما ظننت أنه الجانب الصواب.

ـ وهكذا سيليستي.

توترت ملامحه على الفور.

ـ من المؤكد أنك لا تتوقعين مني التسامح مع ما فعلت.

أفسد هذا التبدل المفاجيء في طبعه وسلوكه خطتها، فجربت المناشدة الرقيقة:

ـ لا، لا أتوقع ذلك. ولكن بإمكانك تفهّم موقفها يا هاغ.

ـ أنا أتفهم كل شيء جيداً.

وكان هذا استبعاداً حاسماً للموضوع.

تنفست ريبيل بعمق ثم قالت بإصرار، وهي غير قادرة على قبول ما هو غير صحيح.

ـ لا! إنك غير متفهم، يا هاغ! لقد وقفت هي بجانبي بطريقة صبيانية.. تماماً كما وقفت أنت بجانبي بطريقة راشدة. ما فعلته هي كان خطأ، لكن النية خلف ذلك كانت نفس نيتك.

رفع حاجبيه معترضاً:

ـ يمكنك، بكل تأكيد، أن تفهمي ما تريدين أن تفهميه، يا ريبيل، ولكن اسمحي لي بأن أخالفك.

سألته بانفعال: «لماذا؟ لقد علمت سيليستي أنهم كانوا يحطّون من شأني فمنعت ذلك، بوقاحة وقسوة. لكن الأولاد ليسوا أساتذة في معالجة المواقف».

قال بتحفظ أرستقراطي: «هذا تفسيرك أنت، ولي تفسير آخر».

فقالت بإصرار: «حسناً، أنت مخطىء!»

أثاره هذا الردّ فقال بعنف:

ـ مخطىء أم مصيب، فأنا لا أتحمل رؤيتها تتصرف كمتوحشة صغيرة على مائدتي.

ـ لو كنت تريها شيئاً من العطف والحنان لما تصرفت كمتوحشة صغيرة.

مرة أخرى وجدت ريبيل نفسها تطيح بخطتها الديبلوماسية، ولكن هاغ حسم الجدال بكبرياء هادىء:

ـ لقد أطلقت يدك معها، فافعلي ما تشائين.

وحياها بانحناءة صغيرة، ثم سار نحو المدفأة، مبتعداً عنها.

وقف يراقب اللهب، وقد بدا شرود قاتم على وجهه، أما ريبيل فاستولى عليها شيء من القنوط. فلن تستفيد شيئاً من استمرار النقاش مع رجل يرفض النقاش، ولم تعرف ماذا تفعل، ولم تستطع أن تتذكر آخر مرة شعرت فيها بمثل هذه الحيرة وهذا العجز.

حدثتها كل غرائزها بأنه من غير الممكن أن تنجذب إلى رجل بمثل هذه القسوة والصلابة. كانت واثقة في أعماقها من أن هاغ ليس شخصاً سيئاً، ولا شخصاً غير عاطفي، ومع ذلك فنظرته إلى ابنة أخيه

عمياء مدمّرة. إنها مدمرة له ولها معاً!.

ولكن كيف الخلاص من ذلك إذا لم يشأ هاغ الإصغاء إليها؟... إذا بقي عقله مغلقاً أمام البراهين الواضحة؟ وهزت ريبيل رأسها وقد اكتسحتها موجة من العجز.

اختار هاغ دافينبورت تلك اللحظة ليستدير ويواجهها، راسماً ابتسامة اعتذار على ملامحه المتجهمة.

ـ ما كان لي أن أوافق على التعامل معك، لكن شيئاً خفياً أغراني بهذه المجازفة..

وأخذت نظراته تحوم على وجهها وشعرها واستدارات جسمها، وهذا ما جعلها تشعر بانجذاب مفاجىء.. برغبة كانت تكبحها. مضت لحظات نسيت فيها كل شيء آخر. لقد سلب لبها تجاوبها مع فكرة أن يقربها منه.. أن يلغي من وجودها كل شيء آخر، فلا يبقى سواهما.. هي وهو.

أرادت أن تختبر ما يكون عليه شعورها إن أصبحت بين ذراعيه يضمها ويعانقها. لكنه لم يقم بأية حركة... لم يحاول استغلال مشاعرها، وعندما رفع، أخيراً، عينيه إلى عينيها، كان فيهما نظرة يأس أسود انقبض لها قلبها.

ـ أدرك الآن أنك ستنتهين بصدمة مؤلمة.

قال ذلك وكأنه يرغم الكلمات على الخروج من بين شفتيه:

ـ وأنا لا أريد أن أرى تألقك هذا يخمد، كنت أنانياً عندما وافقت على عرضك.

وانخفض صوته برجفة وألم: «هذا المكان لا يصلح لك، يا ريبيل. الأفضل لك أن تدعي سيليستي لي. الأفضل لك أن تغادري المنزل غداً قبل..».

قاطعته بحزم: «لا! لن أذهب، يا هاغ! لا يمكنني أن أترك سيليستي لك. خصوصاً عندما..».

ورمقها بنظرة معذبة:

ـ ريبيل... صدقيني أن هذا لمصلحتك. يجب أن ترحلي.

ـ لا أستطيع، لا أدري سبب شعورك هذا نحو سيليستي، ولكن بالنسبة إليّ...

وتوسلت إليه عيناها أن يفهم:

ـ إنني أرى نفسي فيها، يا هاغ. عندما كنت في سنّها، كنت مثلها تماماً، أنا...

ـ لا..

ووضع كأسه بعنف وثورة على رف المدفأة فتحطم الكوب وسال العصير على يده. نفض يده دون اكتراث ثم سار نحوها بعزم هائل جعلها تجمد مكانها، وأخذ كوب العصير من يدها ووضعه على الصينية وأمسك بكتفيها وكأنه يريد بذلك زيادة تأثير كلماته عليها:

ـ يجب أن تصغي إليّ. أفهم سبب انسجامك مع سيليستي، فأنت تفكرين أنها مثلك فقدت والديها. لكن حياتها لا تماثل حياتك، فسيليستي لم تهتم لفقد والديها ولم تحزن عليهما مثلك. ما كنت لتأتين إلى هنا لولا حبك لأمك. أليس كذلك؟

فأومأت وقد منعها جفاف حلقها من النطق:

ـ كما أنك تحبين الأسرة التي تبنّتك، أليس كذلك؟

ـ نعم!

همست بذلك شاعرة بالعجز، فهي لا تدري إلى أين سيؤدي بها هذا.

ـ أنت تؤمنين بأن الحب سيخلص سيليستي، لكن هذا لن

يحدث، يا ريبيل، لأنها ستعبث بحبك وتتلاعب بك حتى تسأم، وعند ذلك تقذفه في وجهك بانتصار ساخر يحطم قلبك. إنني أعرف ما أقول، صدقيني. ويشهد الله أنها صليبي الذي عليّ أن أحمله لأجل... لكن هذا أمر لا يهمك. ما كان لي أن أدعك تتورطين معها.

وأظلمت عيناه ووجهه باستسلام كئيب:

ـ بالنسبة إلى شخص مثل سينتيا لاملي، الأمر بسيط جداً، فهي لا ترى في سيليستي أكثر من طفلة مزعجة، ولن يجرحها بعمق أي سلوك معادٍ نحوها. ولكن هذا يجرحك أنت، يا ريبيل، لأنك تحبينها كثيراً. وهذا الحب تضعينه في يد سيليستي سلاحاً تستعمله ضدك.

نفرت ريبيل عقلياً وقلبياً مما كان يقول:

ـ لا! إنها بحاجة إلى أن تكون محبوبة. أنت مخطىء في نظرتك إلى الأمر.

تنهد بيأس:

ـ ريبيل. سيليستي تكرهني لأنني أفهم ألاعيبها وهي تدرك ذلك، ولا يمكنها أن تنتصر عليّ... أما أنت..

ورقّت أساريره ولمس وجنتها بلطف ثم أضاف:

ـ الحب بالنسبة إلى سيليستي هو ضعف ينبغي استغلاله. لو استطعت إقناع نفسي بأنك لن تقعي فريسة ألاعيبها الخبيثة، لما تخليت عن سروري بمعرفتك.

وسقطت نظراته على وجهها الجميل، ولامس شفتها السفلى بإبهامه، ثم رفع يده عن وجهها بالرغم عنه ونظر في عينيها:

ـ ولكن ما زال لدي ضمير رغم كل شيء. وأنا أريد أن تبتعدي

عن هذه المعركة المستنزفة للروح، طالما مثلك العليا ما زالت سليمة متألقة.

كان يعلم أنها منجذبة إليه، تماماً كما كانت تعلم أنه منجذب إليها، وقد اعترف بذلك لتوّه، ثم تراجع عنه. عرفت أنه يريدها من خلال لمسات أنامله، ومن عينيه، ومن خلال التوتر الذي يفيض منه ويلفها بشبكة آسرة. كان ذلك حقيقة نابضة بينهما، ولكن دون وعد بمستقبل.

كلامه يقول بأن لا شيء لها هنا، لا شيء لتبقى من أجله. وقد فهمت ريبيل ذلك ولكن هل كان على صواب في كل شيء؟ أتراها خدعت نفسها بالنسبة لسيليستي؟ تذكرت أول انطباع لها عن الطفلة، وفزعها من خبثها الذكي. ثم تذكرت بريق السرور والانتصار في العينين الزرقاوين، والحب الذي راهنت عليه لإنقاذ الطفلة.

وتصاعد طرق على الباب، ثم فتحه بروكس معلناً:

ـ العشاء جاهز، يا سيدي اللورد.

أجاب هاغ: «شكراً يا بروكس».

وانحنى رئيس الخدم العجوز، ثم انصرف.

استدار هاغ إلى ريبيل منتصب الكتفين وكأنه صمم على نفض عبء عنهما، ثم قال يدعوها باسماً:

ـ تعالي، سنتحدث عن أمور أكثر بهجة.

قال ذلك مازحاً، فمنحته ابتسامة مرتجفة، لكن عينيه السوداوين لم تكونا باسمتين، ولا عينيها.

* * *

٦ ـ بين الخير والشر

كانت غرفة الطعام تتألق بخشب الماهوغوني المصقول، والمائدة المستطيلة البيضاوية جاهزة وسط الغرفة. وتدلت من السقف ثريتان تلقيان في أنحاء الغرفة ضوءاً هادئاً.

أمسك بروكس لريبيل كرسياً لتجلس عليه، وكان الكرسي منجداً بالبروكار المخملي، مطرزاً بالورود على خلفية رمادية فضية. لاحظت ريبيل كل ذلك؛ إذ بدا لها، لأمر ما، أن عليها أن تلاحظ كل شيء، أن تطبع في ذهنها ذكريات تستطيع استرجاعها كلما شاءت. أما لماذا تريد ذلك، فهذا ما لم يكن واضحاً في ذهنها. ربما جزء من شعور بالهزيمة.

قدمت لهما الخادمة هليوناً مطبوخاً مع صلصة هولندية كثيفة، وعندما انصرف الخدم سألها هاغ:

ـ أخبريني بالمزيد عن أسرتك الكبيرة يا ريبيل، فالفضول يتملكني لذلك. هل كان هنالك من خطة وضعتها عائلة جايمس لتبني أطفال من مختلف البلدان؟

لم تكد ريبيل تفهم هذا السؤال، وكأن المقصود من هذا السؤال إضفاء جوّ طبيعي على الأمسية.. جو كاذب ليغطي مشاعر تغلي بينهما، فأجابت بشكل عفوي:

ـ لا! جاءت الأغلبية العظمى منا عن طريق الصدفة.

كانت أفكارها ما زالت تدور حول تصرفات سيليستي وتجاوبها. لم تكن تشك في أن هاغ تحدث عما يعتقده الحقيقة. ولكن هل هي الحقيقة فعلاً؟

- كيف يأتي بالمصادفة كل أولئك الأطفال الأربعة عشر؟

نظرت إلى عم الطفلة متفحصة. ما الذي يعرفه عن الأطفال؟ ألا يمكن أن يكون مخطئاً بالنسبة إلى سيليستي؟ وسألته:

- هل سبق أن تزوجت يا هاغ؟

فقطب جبينه وقال ساخراً:

- أبداً! وأنا مرشح مثالي للزواج منذ ورثت لقب أخي وأملاكه. هل تتزوجينني؟

طردت لهجته الوقحة الساخرة أي احتمال بجدّية هذا السؤال، وجاهدت ريبيل لإخماد شعورها بخيبة الأمل:

- كنت أتساءل فقط، فمعظم الرجال الذين في عمرك هم إما متزوجون أو كانوا متزوجين.

فقال مبالغاً في السخرية من نفسه:

- يبدو أن النساء كن يتجنبنني، ولكن ما زال بعضهن يتقدم لطلب يدي.. عاجلاً أم آجلاً، سأختار واحدة وأتزوج، ولو بغرض إنجاب وريث.

أتراه يحاول متعمداً أن يفزعها؟ أن يبعدها عنه بطريقة لا تُبقي شيئاً يغريها على البقاء هنا؟ أم أن سخريته تعكس مرارة حقيقية، وهو يعني حقاً ما يقول؟ وشعرت بالغثيان وهي تتصوره متزوجاً من سينتيا لاملي. سألته:

- ألم يحدث قط أن أردت الزواج بامرأة أحببتها؟

وكانت بهذا السؤال تبحث عن صورة أوضح لطبيعة تفكيره.

تردد قليلاً، وما لبث أن رمقها بنظرة قاسية ملتهبة:

- نعم، كان هناك وقت أعمتني فيه الجاذبية إلى امرأة وظننت نفسي مغرماً، ولكن لحسن حظي، وسوء حظ أخي، اختارت المرأة التي كانت نور حياتي، أخي بدلاً مني، كاشفة عن طبيعتها المظلمة.

كريستين... وسيليستي هي ابنة كريستين! أيمكن أن تكون تجربته المرّة مع الأم، سبباً في حكمه هذا على الابنة؟ لكن الطفلة كانت ابنة أخيه أيضاً! أليس لهذا حساب عنده؟

وتابع، بشيء من الحزم، وكأنه يريد أن يقنع نفسه ويقنعها:

- هناك الكثير مما يقال عن زيجات المصلحة، أو الزيجات المتلائمة، حيث تكون توقعات الرجل من هذا الزواج في حدود المعقول. أما الخيال فيهبط إلى الصفر، وهذا أسهل كثيراً.

ورفع كوبه ليشربه دفعة واحدة توحي بأنه يريد أن يخفف من مذاق مرّ في فمه، بينما أخذت ترشف شرابها بهدوء محاولة أن تفصل ما هو حقيقي عما هو غير ذلك، وازداد شعورها بالتشوش المؤلم إزاء هذا الوضع، فاستأنف كلامه:

- ولكن لا تدعي نظرتي الحاقدة إلى الزواج تؤثر في أحلامك يا ريبيل.

جعلتها لهجة الاهتمام الحادة في صوته تحول نظراتها إليه، فقال بابتسامة ساخرة:

- ربما هناك بعض الزيجات السماوية.

- نعم.

قالت ذلك وهي تفكر في زواج أختها. إنها لا تستطيع التفكير في زوجين أسعد من تيفاني وجول، فالزواج أغنى حياتهما بأكثر من معنى.

عاد بروكس يرفع الأطباق الفارغة، وجاءت الخادمة بالطبق الرئيسي. لم تستطع ريبيل أن تتذكر أنها تناولت الهليون، ولكن يبدو أنها فعلت ذلك دون وعي. رفع هاغ رأسه قائلاً:

ـ أرجو أن تتزوجي رجلاً تحبينه وتكوّني الأسرة التي تريدين.

ردّت برصانة بالغة: «شكراً».

أقبل على السمكة في صحنه وكأنه مصمم على أن يحشو بها حلقه سواء أعجبته أم لا، أما ريبيل فأخذت تنقر السمك بشوكتها دون شهية على الإطلاق. قال يذكّرها:

ـ لم تجيبي عن سؤالي السابق، وهو كيف تبتكم أسرة جايمس أنت وإخوتك جميعاً!

ـ آه، كان ذلك في أوقات مختلفة وأماكن مختلفة وظروف مختلفة، أنا السادسة بينهم وكان «زاكاري لي» هو الذي عثر عليّ.

ـ زاكاري لي؟

ـ إنه أول من تبنوه، صادفه السيد جايمس في «نيو أورليانز»، وكان معجزة في لعبة الشطرنج، يستغله بقسوة رجل طمّاع خسيس. وقد أنقذه والدانا.

ـ وكيف عثر عليك؟

ـ كان سائراً في الشارع، فلمحني في زقاق حيث كنت أبحث في صندوق قمامة عن شيء آكله.

ـ صندوق قمامة!؟

ابتسمت ريبيل بأسى وهي ترى الذعر على وجه هاغ.

ـ هذا شيء بعيد عن عالمك، يا هاغ، لكنه موجود ومستمر على الدوام.

ـ ولكن لماذا كنت تفعلين ذلك؟

ـ لأنني كنت جائعة. كنت هاربة مرة أخرى حينذاك.

ـ هاربة من ماذا؟

ـ من الناس. كنت أكره جميع الناس، مثل سيليستي.

ـ سيليستي لم تشعر بالجوع قط في حياتها، ألم يأخذك أحد تحت رعايته بعد وفاة أمك؟

قالت بسخرية مرة:

ـ آه، بلى! لقد وضعتني إحدى منظمات الرعاية الاجتماعية لدى أسرة تستقبل الأطفال لتحصل من الحكومة على مساعدة مالية، فكانوا يأوونا ويطعموننا ويشغّلونا كالعبيد ويضربوننا إذا لم ننفذ أوامرهم حرفياً. وبعد سنتين هربت.

وتنهدت بأسى، مستعيدة المشاعر التي رأتها في سيليستي. الشعور بعدم الانتماء لأحد... عدم الأمان... الخوف من المستقبل.. الوحدة وعدم الثقة بالناس عموماً، التمرد والثورة! وتابعت تقول:

ـ هربت مرة ثانية.. وأخيراً أخذتني الشرطة وألصقت عليّ بطاقة تقول إنني غير منضبطة، غير قابلة للتفاهم ولا أستقرّ في مكان. كنت أعلم أن لا مكان لي، وأخذت أهرب من أي مكان يرسلونني إليه، حتى بعد أن عثر عليّ «زاكاري لي» وأخذني معه.

ـ كم كان عمره حينذاك؟

ـ سبعة عشر.

فقطب جبينه:

ـ ألم تخافي منه حين اقترب منك في الشارع؟

هزت ريبيل رأسها لسخافة هذه الفكرة، إذ كيف تخاف من أخيها الأكبر؟

ـ كان «زاكاري لي» بضخامة رجل، لكنه كان أيضاً ألطف رجل في العالم. نظرة واحدة إليه فتعلم أنك في أمان.

ورقّت عيناها وهي تتذكر ما فعله لأجلها من أشياء رائعة:

ـ وعدني بأن لا يدع أحداً يؤذينني. أعطاني شيكولاتة وبسكويت. كان عليّ أن أجتهد كثيراً لاكتساب احترامه، لكنني كنت أعلم أنه يحبني ويحترمني لأنه لم يفقد صبره قط معي، وكان موجوداً على الدوام حين أحتاجه. بشكل ما، رتّبوا الأمر مع السلطة بحيث أمكنني البقاء مع أسرة جايمس ومع «زاكاري لي».

ـ وهل سارت الأمور على ما يرام بعد ذلك؟

ـ تملكني الخوف في البداية من أن يكون لي أسرة تهتم حقاً بما أفعل أو كيف أشعر، هربت منهم عدة مرات، ولم أكن جادة في ذلك تماماً، كنت أهرب لأشعر بالاستقلال والحرية، وكان «زاكاري لي» يعثر عليّ دائماً، فيقنعني بالعودة. في النهاية، كان هو حقاً الذي جعلني... جعلني ما أنا عليه الآن!

قال هاغ باحترام بالغ: «إنه إذن جدير بالمديح لكل ما فعل.. وهو لا شك فخورٌ بك!»

ـ نعم، نعم، إنه كذلك!

ونضح من صوتها حبها العميق لأخيها الأكبر الرائع: «وأنا أيضاً فخورة به، إنني فخورة بكل إخوتي وأخواتي. بعضهم جاء إلى الأسرة في ظروف أسوأ كثيراً من ظروفي. لقد علمنا والدانا كيف يقبل واحدنا الآخر مهما قال أو فعل. وتدريجياً، أخذت تلفنا شبكة قوية من المحبة والتعاون، باعثة شعور الأمان الذي جعل التعبير الحقيقي عن النفس، ممكناً، لأن الرفض لم يعد موضوع بحث. مهما حدث لأي منا، هناك دوماً الأسرة التي نعود إليها».

قال بلطف: «إنك إذن فتاة محظوظة!»

نظرت إليه متفحصة، فكان في ملامحه صلابة كئيبة لم تشجعها على توجيه السؤال الذي أرادت. مع ذلك قررت أن تهاجم:

ـ كانوا يعتبرونني طفلة لا يمكن التفاهم معها، يا هاغ. ألا تظن أن هناك إمكانية في أن أتمكن من التفاهم مع سيليستي؟

فقال دون تردد:

ـ لا أمل في ذلك على الإطلاق! لا يمكنك التفاهم مع أناس عديمي ضمير، يا ريبيل. لأن عقولهم تعمل بشكل مختلف.. لا يمكنك أن تجعليهم يحبون شيئاً سوى مصلحتهم التي يفهمونها بطريقة ملتوية، مختلفة عن رأيي أو رأيك.

ـ أنت لم تأخذ سيليستي في رعايتك إلا منذ ستة أشهر، يا هاغ. فكيف يمكنك التأكد من ذلك؟

أطلق صوتاً خشناً ساخراً:

ـ لقد تدربت على يد أمها سبع سنوات، وهي ابنة أمها حقاً!

ـ وماذا بالنسبة إلى أبيها؟ أخيك؟ أليس في سيليستي شيء منه؟

ـ أشك في هذا كثيراً. لقد تعمدت كريستين تسميم علاقتي بأخي، وأخبرته أن سيليستي هي ابنتي أنا، وهذا غير صحيح. ولكن ابنة من هي؟ قد يكون الأب أياً من عشاقها الكثيرين، الشيء الوحيد المؤكد هو أن كريستين كانت أمها.

أخذت ريبيل تفهم سبب كره هاغ لكريستين، لكنها ما زالت لا تعطيه الحق في اعتبار سيليستي من نفس النوع. كان واضحاً أن الطفلة نبذت من أبيها منذ ولادتها. والواقع أن ريبيل أخذت تشك في أن سيليستي أمضت مع أمها وقتاً طويلاً. رأي هاغ في أن الطفلة تدربت على يدي أمها ليس له وزن يذكر، فامرأة مثل كريستين لا

تزعج نفسها كثيراً لأجل طفلة. هكذا وضعت سيليستي في رعاية المربيات طوال حياتها، بعيداً عن رعاية الأهل ومحبتهم.

قال بخشونة وكأنه قرأ أفكارها:

ـ انسي كل هذا، يا ريبيل. أنت تؤذين نفسك في خبط رأسك بالجدار. لا شيء لك هنا سوى ما جئت لأجله. وأنا، على الأقل، أمنحك ذلك مقابل الانزعاج الذي تحملته لأجل طفلة.

لم تفهم على الفور، ما قاله هاغ، فسألته:

ـ ماذا تعني؟

انقطع الحديث بعودة بروكس والخادمة لرفع المائدة.

ـ سنشرب القهوة في المكتبة، يا بروكس!

ـ كما تشاء، يا سيدي اللورد.

بعد خروج الخادمين، قال هاغ لريبيل موضحاً غرضه:

ـ أنت لست الوحيدة التي جاءت إلى هنا لتسأل عما حدث لأيتام الحرب، يا ريبيل، تذكرت عصر هذا اليوم أن ثمة سجلاً لهم في أرشيف المنزل، محفوظاً في المكتبة، وقد اكتشفه مصادفة السير مالكولم بايرد، ولا أدري لماذا كان يريده.

ـ ومن هو السير مالكولم بايرد؟

ـ إنه مؤرخ، وكما أذكر، كان يكتب بحثاً تاريخياً عن الأشخاص الذين تشردوا أثناء الحرب، لقد استجوب كل شخص في المزرعة والقرية عن المكان الذي أرسل إليه الأيتام بعد مغادرتهم داڤينبورت هول، ولكن لم يكن يعلم ذلك أحد.

قالت ريبيل بجفاء: «يبدو أن السلطة أرادت التكتم على حقيقة أنهم شُحنوا إلى أستراليا».

ـ من المؤكد أن السجل لا يذكر ذلك. لكنني فكرت في أنك قد

تحبين أن تري ما سجلوه عن إقامة أمك هنا.

شملت ريبيل موجة من الحزن.. تذكرت أمها جالسة على سريرها تمسّد على شعرها وتحكي لها حكايات جميلة، ثم تقبلها تحية المساء. لم تكن حياتها سهلة وهي تنشئ طفلة بمفردها، كانت تبكي أحياناً، وكان هذا يعصر فؤاد ريبيل ألماً، لكن أمها كانت تحتضنها بشدة وتبدد مخاوفها. وذات يوم، أخذوها في سيارة الإسعاف ولم ترها ريبيل بعد ذلك قط. لكنها كانت هنا في داڤينبورت هول منذ سنوات كثيرة.

ـ ماذا كان اسم أمك الأول؟

ـ ڤاليري، ڤاليري غريفيث.

فأومأ قائلاً: «كانت هنا بكل تأكيد، فأسماء الأيتام مسجلة في قائمة، وهناك اسم غريفيث».

غالبت ريبيل دموعاً مفاجئة ثم جاهدت لابتلاع غصة في حلقها.

ـ لطف منك أن تبحث عن هذا لأجلي، شكراً يا هاغ، ويسرني جداً أن أرى كل ما هو مكتوب عنهم.

فقال عابساً:

ـ ليس هناك الكثير، يا ريبيل.. ثمة تاريخ يوم وصولهم والترتيبات التي اتخذت لأجلهم، وقائمة بالأسماء وتاريخ يوم المغادرة.

ـ هذا أفضل من لا شيء!

قالت ذلك ببساطة، فقطب جبينه:

ـ ألم يبق لديك شيء من السنوات التي أمضيتها مع أمك؟

ـ الذكريات فقط!

قالت ذلك بابتسامة مرغمة، فازداد تقطيبه:

- يمكنني أن أصوّر الصفحات إذا شئت.

فكرت ريبيل لحظة، ثم هزت رأسها ببطء:

- رؤيتها فقط تكفي.

لم تر منه هذه المرة سخريةً ولا تهكماً ولا تحفظاً متكبّراً، بل عطفاً وتفهماً، وأسفاً لعدم تمكنه من تقديم المزيد، فجأة لمحت شعوراً بالضيق على وجهه، وأحست بقلبها يُعتصر ثانية، فلا مستقبل لها معه، لكنها رغم ذلك شعرت بتمرد عنيف ضد هذا القدر. هناك خطأ ما!

هذا الرجل يملك قلباً رحيماً طيباً... ومع ذلك أقفله في وجه ابنة أخيه.. وأقفله في وجهها، كذلك!

عاد التحفظ إليه وهو يسألها بأدب عما إذا كانت تريد مغادرة المائدة. لكنها لاحظت توتره أثناء توجههما إلى المكتبة. شعرت بقربه الحميم وهو يجلس إلى جانبها في المكتب الرئيسي، مشيراً إلى السجلّ اليومي لسنة ١٩٤٤، لكنه لم يتجاوز حدود اللياقة والتهذيب بصفته مضيفاً.

كان الأيتام قد احتلوا الطابق الثاني في دافينبورت هول، وهو طابق الأطفال تقليدياً، كما أخبرها هاغ. لم تنزل سيليستي إلى الطابق الأول إلا بعد أن اشتكت إحدى مربياتها بأن السلالم تتعبها، وسألته ريبيل:

- أودّ لو ألقي نظرة على الطابق الثاني، إذا لم يكن في ذلك إزعاج لأحد.

- لا إزعاج مطلقاً! غرفة الخدم في الطابق الذي فوقه، سآخذك إلى هناك عندما تنهين قهوتك.

بدا وكأنه يريد أن يحقق كل آمالها التي جاءت بها إلى هذا

المنزل بحثاً عن أثر من حياة أمها، وعندما رافقها من غرفة إلى غرفة في الطابق الثاني، تذكرت ريبيل أن هذا بالضبط ما كانت تريده منه بالأمس، قبل أن تنفجر سيليستي بذلك المشهد المزري الذي غير كل شيء.

استغربت أن يكون كل ذلك قد حدث في يوم واحد. لقد بدا الوقت أطول من ساعاته المعدودة... ربما بسبب الحديث عن الماضي والمستقبل، وإثارة الذكريات والمشاعر... والأغرب هو تأثرها البالغ حين أراها هاغ غرفة الدرس، لم تترك غرف النوم في نفسها أي أثر، ولكن ما إن دخلت ريبيل إلى غرفة الدرس، حتى هاجمها شعور مخيف موحش بانعدام الزمن.

اغرورقت عيناها بالدموع، ولم تستطع مغالبتها هذه المرة. مدت يدها تلامس بأصابعها غطاء المكتب القديم المخرش، وبقع الحبر، وخربشة أقلام الرصاص، وخدوش...

- كان هذا مكتبي.

جاء صوت هاغ من خلفها طافحاً بذكريات الماضي، فتمتمت بصوت أجش.

- ومكتب آخرين قبلك.

لم تسمعه يتحرك. ومع ذلك، عندما أدارها إليه برفق، لم تُدهش. لم تر التعبير الذي بدا على ملامحه لأن عينيها كانتا غائمتين بالدموع، وشعرت بدفء وتعزية وحنان بين الذراعين اللتين طوقتاها وضمتاها إلى صدره، ولكم شعرت براحة في إسناد رأسها إلى كتفه. وخفف ذلك من ألم الفراغ في فؤادها، قال بصوت رقيق متهدّج:

- أنا واثق من أن أمك كانت سعيدة هنا، يا ريبيل، فقد كان هذا المنزل سعيداً ذات يوم. أنا وأخي... كنا نستمتع كثيراً في غرفة

الدراسة هذه. كم أتمنى...

ومرة أخرى، سكت فجأة وقد تاهت به الذكريات التي أصبحت، فجأة، مؤلمة للغاية. شعرت بيده تصعد إلى شعرها الحريري وتداعبه بأصابعها. وضع خدّه على شعرها برقة زائدة، أو ربما خُيّل إليها ذلك. لكنها ظنت أن فمه احتك بأذنها.

عند ذلك انتبهت إلى أن الرغبة في التخفيف عنها قد تحولت إلى رغبة من نوع آخر، تحوّل الدفء إلى شحنة كهربائية والقوة إلى توتر أكثر صلابة، وأخذت الإثارة تتملكها. أدركت ريبيل أن بقاءها مستكينة إلى عناقه هو لعب بالنار، لكن جزءاً طائشاً منها همس بأن هذا مكتوب له أن يحدث، فلماذا الممانعة؟

همس هاغ بصوت منخفض متألم:

ـ إن لك أسرة تعودين إليها، يا ريبيل. أسرة رائعة تحبك، والنظرة إلى الماضي... لن تنفعك بشيء.

وأمسك بشعرها يرفع رأسها إلى الخلف. فتحت ريبيل عينيها الدامعتين فرأت وجهه متوتراً:

ـ لو كانت أمك موجودة، لرغبت إليك في مغادرة هذا المكان، لكي تسعدي في حياتك، وعندما تذهبين غداً إلى لندن...

ـ لا، لا يمكنني أن أذهب، يا هاغ! هذا خطأ! خطأ!

تنهد بعمق وقنوط مرة أخرى:

ـ ماذا عليّ أن أقول لكي تفهمي عدم فائدة بقائك؟

ابتلعت ريقها بصعوبة... إنها لم تعد تفهم نفسها حقاً، مهما كانت على خطأ، فهي لا تستطيع أن تدير ظهرها لطفلة ضائعة ليس هناك من يحبها، وهي لا تستطيع احتمال أن تدع هذا الرجل يدير ظهره إليها قبل أن يُحسم الأمر بينهما. شعورها بأن هناك شيئاً إيجابياً

للغاية يجب اكتشافه.. هو شعور أقوى من أن يزاح جانباً، وهمست ضارعة:

ـ عليّ أن أحاول. لقد وافقت أنت على أسبوع، يا هاغ!

توتر فكه والتهبت عيناه بغضب جعلها تقشعرّ خوفاً. أمسك بأعلى ذراعيها يشدّ عليهما بحيرة وعذاب، ثم أبعدها عنه قليلاً:

ـ فليكن ذلك على مسؤوليتك! ولن أهتم بما يحدث.

تركها وابتعد بخطوات واسعة، تاركاً ريبيل مسمّرة في مكانها وقتاً طويلاً.

ثمة قوى مؤثرة في دافينبورت هول، قوى هي فوق إدراكها. وشعرت بأنها، بشكل ما، قد تورطت في حرب بين الخير والشر، وأسرتها علمتها أن الخير هو المنتصر في النهاية.. هذا إذا هي آمنت به.

* * *

٧ ـ عناق الغول

لم تمض ريبيل ليلة مريحة، كان صعباً عليها أن تنبذ رأي هاغ في ابنة أخيه، كما كان صعباً أن تتجاهل مشاعرها نحوه. لقد جذبها بشكل لم تعرفه مع رجل آخر، ومع ذلك كان عليها أن تواجه حقيقة أنه رفض متابعة اللعبة، غاسلاً يديه من الوضع كله.

فكرت أن تفعل الشيء نفسه، ولكن أسبوعاً من حياتها، تكرسه لهذه الطفلة، ليس بالشيء الكثير. وإذا تأكدت من أن وجودها هنا غير مطلوب وغير مفيد حقاً، فسترحل مستريحة الضمير. بيد أن منطقها هذا كان يتهاوى أمام إحساسها الشديد بأنها لن تتحرر من دائينبورت هول أبداً.

في الصباح التالي، نزلت ريبيل إلى الفطور مبكرة. كان لديها موعد عمل في لندن في الساعة الحادية عشرة، وتريد أن ترى سيليستي قبل ذهابها، فالحاجة إلى اختبار التقارب الذي ظنت أنها وطّدته بينهما أمس كان الأهم في نظرها.

رفعت الجالسة الوحيدة إلى المائدة رأسها. ولكن الترحيب الذي بدا في عيني الصغيرة سرعان ما تبدد وهي ترى بذلة العمل الخضراء الأنيقة التي ترتديها ريبيل.

ـ كنت أعلم أنك سترحلين!

قالت سيليستي ذلك بخشونة، ثم غرزت شوكتها بقوة جعلت

بعض الطعام يتناثر من صحنها على المائدة.

ـ لست راحلة. لكنني لست سيدة مرفهة مثلك، لديّ عمل عليّ أن أنجزه. إذا كنت فتاة عاقلة، قد آخذك معي يوماً ما.

قالت ذلك وهي تجلس أمام الطفلة، وتسكب لنفسها كوباً من العصير، متجاهلة النظر إليها، مع أنها متيقنة بأن الطفلة تتفحّصها باهتمام.

دخلت خادمة وسألت ريبيل عما تريد أن تأكل.

ـ لحم وخبز محمص.. جميل جداً.

قالت ريبيل ذلك بابتسامة واسعة، راجية أن توحي إلى الطفلة بأن كل شيء على ما يرام هذا الصباح، سألتها سيليستي:

ـ ما هو العمل الذي تقومين به؟

أجابت بابتسامة:

ـ أخبرتك عن سباق المناطيد أمس، فما زلت بحاجة إلى ثلاثة وثلاثين مشتركاً، وأرجو أن أحصل على واحد منهم اليوم، وهكذا عليّ أن أذهب إلى لندن لأتحدث إلى الشخص الذي اتصلت به لكي أقنعه بتوقيع عقد.

لم يبد الإقتناع على سيليستي، فاتسعت ابتسامة ريبيل تطمئنها:

ـ سأخبرك إذا نجحت في ذلك عند عودتك من المدرسة بعد الظهر.

ردت الطفلة بشراسة:

ـ لن أذهب إلى المدرسة! أنا أكره المدرسة! ولن أعود إليها أبداً!

ـ هذا شيء صعب، يا صغيرة! إذ سيفوتك كثير من الدروس!

العودة إلى مخاطبتها بكلمة «صغيرة» جعلت العينين الزرقاوين

تنظران إليها بتمرد:

ـ هذا لا يهمني!

كان الجواب متوقعاً، فهزت ريبيل كتفيها:

ـ حسناً، إنه قرارك أنت، ولا شأن لي به، لو كنت مكانك لرفضت أن يهزمني الصغار الآخرون لأنهم يتعلمون أكثر مني. من الغباء أن تكرهي المدرسة إلى هذا الحد!

وصل فطور ريبيل فحوّلت كل انتباهها إليه وأخذت تأكل تاركة سيليستي تفكر في كلامها. إنها لا تريد أن تترك الطفلة وحيدة طوال النهار، فهذا لن يكون مفيداً على الإطلاق.

كانت تسكب كوب قهوة لنفسها عندما قالت سيليستي:

ـ لا يمكنني العودة إلى مدرستي على كل حال، فقد أخبروا عمي أنهم لا يريدون أن أعود إلى هناك.

لم يحجب التمرد رجفة عدم الثقة في صوتها.

ـ أصحيح هذا؟ يبدو من هذا أنك كنت مشاغبة، يا صغيرة. لكنني واثقة من أن عمك سيجد لك مدرسة أخرى إذا طلبت منه ذلك. ربما مدرسة لن تكرهيها أبداً، هناك مدارس كثيرة... أما إذا بقيت مشاغبة، فأظن أنك ستطردين منها جميعاً!

قطبت سيليستي جبينها لهذه الفكرة عدة لحظات:

ـ لن أطلب شيئاً من عمي هاغ!

قالت ذلك وهي تضع مرفقيها على المائدة وتسند خديها إلى قبضتيها.

ـ ستخسرين سنوات كثيرة من التعلّم... وهذه مشكلتك أنت. ولكن، ما دمت لن تذهبي إلى المدرسة اليوم، فما رأيك في المجيء معي إلى لندن؟ ليس لدي هناك سوى اجتماع واحد وهذا لن يتأخر

طويلاً. بعد ذلك يمكننا أن نأكل الهامبورغر والبطاطا المقلية ونركب زورقاً في نهر التايمس.

فلمعت العينان الزرقاوان كالنجوم:

ـ صحيح؟! هل يمكننا هذا؟

وأخفت ريبيل فرحها البالغ لتجاوب الطفلة معها وقالت:

ـ ولم لا؟ طبعاً عليك أن تكوني صابرة أثناء وجودي في الاجتماع، فلا تدوسي على رجل أحد ولا تتكلمي بصوت مرتفع أو تتصرفي بشكل مخيف. راقبي تصرفاتي. يمكنك أن تتعلمي مني أكثر مما تتعلمين من المدرسة أو الجامعة. أما إذا كنت مشاغبة، يا صغيرة، فلن آخذك معي إلى العمل مرة أخرى.

فقالت الطفلة بلهفة:

ـ أعدك بأن لا أشاغب، يا ريبيل، أعدك مرتين وثلاثاً.

لو أرادت ريبيل مزيداً من التأكيد على أن الطفلة ليست متوحشة، كما يصر هاغ على القول، لوجدت ذلك في هذه الكلمات الطفولية، وفي لهفتها إلى التشبث بهذه الفرصة. عليها إذن أن تقبل الوعد دون مناقشة. فالثقة مبنية على الثقة، وابتسمت:

ـ لا بأس إذن، اذهبي واستعدي. سأخبر أنا السيدة تومكينز بأنك ستأتين معي. وبهذا يعرف عمك مكانك فلا يقلق عليك.

فقالت سيليستي وهي تركض نحو الباب: «إنه لن يهتم».

قالت ذلك بثقة تامة جعلت قلب ريبيل ينعصر. الشيء المريع الذي لا يمكنها إنكاره هو أن ما تقوله الصغيرة صحيح، أما كيف تُغير موقف هاغ دائينبورت، فهذا أصعب ما في مهمتها الإنقاذية.

على كل حال واجهت ريبيل مشكلة صعبة عندما ذهبت إلى السيدة تومكينز لتطلعها على الأمر. تملك مدبرة المنزل الاضطراب

البالغ وهي تسمع ريبيل تقول بأنها ستأخذ سيليستي معها إلى لندن، واتسعت عيناها ذعراً عندما أضافت ريبيل بأن الرحلة تتضمن اجتماع عمل، بالإضافة إلى التنزه.

ـ لا يمكنني أن أتدخل، يا آنسة جايمس. أظن أن عليك التحدث إلى اللورد داڤينبورت أولاً، لأن اللايدي سيليستي... حسناً، قد تبدو ملاكاً عندما تريد شيئاً، ولكن... آه! لا أظن أن بإمكانك اصطحابها والمخاطرة بعملك، يا آنسة جايمس، لا أظن ذلك حقاً...

وتمالكت المرأة نفسها، وتنفست بعمق:

ـ لست أنا من يقرر. دعيني آخذك إلى اللورد داڤينبورت، فهو في مكتبه. وأنا واثقة من أنه لن يوفق...

قاطعتها ريبيل بحزم:

ـ سبق أن أخبرني اللورد داڤينبورت أن بإمكاني أن أفعل ما أشاء مع سيليستي، يا سيدة تومكنز.

أجابت المرأة بقلق:

ـ لا أظنك تتفهمين الأمر، يا آنسة جايمس. هنالك شيء في هذا المنزل، جميع الخدم.. معتادون على أساليب سيليستي ومع ذلك لم يلاحظ أحد حبسها للمربية في مستودع الغاز. والحمد لله لأنه لم يحدث ضرر حقيقي جراء تلك الحادثة!

ـ بالضبط. ولن يحدث أي ضرر اليوم، يا سيدة تومكنز.

قالت ريبيل هذا بثقة أكبر مما تشعر به في الواقع. لكنها قررت أن تتبع غريزتها في الحكم على الأمور.

قالت تطمئن مدبرة المنزل:

ـ اللورد داڤينبورت يعلم ما هو هدفي، وأنا أعلمه بالأمر من قبيل

اللباقة فقط. فأرجو منك التكرم بتوصيل هذه الرسالة إليه في وقت مناسب.

وبالرغم من لهجة السلطة التي استخدمتها ريبيل، إلا أن الخوف على عملها لم يبارحها. كانت تقدم على مقامرة مع سيليستي، على كل حال، لا بد من المقامرة، وليس أمامها سوى أسبوع للقيام بمعجزة معتبرة. وحتى لو خيبت سيليستي أملها، فإن العالم لن ينتهي إذا هي خسرت مشتركاً في مشروعها.

ولكن تبين لها في ما بعد، أنه ما كان لهذا النهار أن يكون أحسن مما كان، ليس فقط لأن ريبيل وصلت إلى هدفها في عقد اتفاقية مع المشترك الجديد، بل لأنه عرض مساعدته لتأمين مشتركين آخرين.

بدا أن لوجود ابنة أخ اللورد داڤينبورت معها تأثير كبير في هذا العرض، ورأت من سخرية القدر أن تفيدها غطرسة أبناء الطبقة العليا في هذه المناسبة، كما أفادها أيضاً، وإلى أقصى حد، أن سيليستي كانت أشبه بملاك طوال الاجتماع، تصغي إلى كل شيء بانتباه بالغ، وهذا ما رفع معنويات ريبيل وهما تغادران المبنى، فهمست لسيليستي بابتهاج:

ـ لقد حصلنا على العقد، وهناك عقد آخر في الطريق، وربما اثنان أيضاً، ويبقى ثلاثون.

منحتها سيليستي ابتسامة عريضة، وقد سرها أن تكون موضع سر ريبيل بالنسبة إلى عملها.

تناولتا مأكولات خفيفة متنوعة احتفالاً بالنجاح، ثم استأجرتا قارباً أبحر بهما إلى «غرينتش». لأول مرة تصرفت سيليستي كطفلة طبيعية تماماً، إثارة واهتماماً وتجاوباً مع كل ما حولها، وثرثرة مع ريبيل دون انقطاع.

لعل سرور ريبيل العفوي قد انعكس على الطفلة. فقد ضحكتا للنكات التي كان يطلقها الدليل، ولتعليقاته المسلية. وتناولتا آيس كريم على الرصيف الممتد قرب «بيغ بن».

كانت ريبيل قد أعطت تعليمات إلى سائق السيارة بأن ينتظرهما هناك. وعندما صعدتا الدرجات إلى الشارع، كانت الرولز رويس السوداء تنتظرهما، بقيت سيليستي لحظة ترفض الصعود إلى السيارة. وألقت نظرة إلى ريبيل تقول فيها بأفصح من الكلمات، أنها تريد الهرب من داڤينبورت هول، ولكن هذا كان يعني الهرب من ريبيل أيضاً.

هبطت بكآبة على المقعد الخلفي، فجلست ريبيل بجانبها ثم وضعت ذراعها حولها وضمتها إليها وهي تتمتم: «هل أنت متعبة؟»

ثم قبلت شعرها الحريري الأشقر، فتنهدت سيليستي بعمق، ثم سألتها ببساطة الطفولة:

ـ هل علينا أن نعود إلى البيت؟

أجابت ريبيل وهي تحتضنها بسرعة:

ـ هناك دائماً يوم آخر يا عزيزتي. لا نريد أن يقلق عمك لتأخرنا.

ـ إنه لن يهتم!

ـ بل أظنه سيهتم، يا سيليستي.

قالت ريبيل ذلك بجد، وكأنها بذلك تريد أن تمنح الطفلة قليلاً من الشعور بالأمان، رغم أنها هي نفسها لم تكن واثقة من ذلك.

وأقسمت بينها وبين نفسها بأن تجعله يهتم بالفتاة، كل الشكوك التي غرسها في نفسها الليلة الماضية تبدّدت هذا النهار، ذلك أن سيليستي لم تكن وحشاً، بل هي ببساطة، مجرد طفلة في حاجة ماسة إلى شيء من المحبة الحقيقية. ولا بد أن يعرف عمها ذلك بشكل ما.

ـ ريبيل؟

ـ ماذا؟

رفعت سيليستي وجهها، وفي عينيها توسل ولهفة:

ـ هل يمكنكم أن تتبنوني في أسرتك؟ لا يهم إذا كان في الأسرة ابنة إنكليزية أخرى، أليس كذلك؟ عندكم إثنان من الهند واثنان من كوريا.

تملك ريبيل حزن عنيف، كان هذا حلاً لكنها لم تستطع أن تتصور اللورد داڤينبورت راضياً به. وابتسمت لها:

ـ أنا واثقة من أن إخوتي وأخواتي سيحبون أن يكون لهم أخت إنكليزية أخرى، يا سيليستي. ولكن ليس بإمكان أبويّ أن يتبنيا الأولاد الذين لديهم بيت وأسرة. ليست هذه هي العادة، لديك عمك.

ـ لكنه لا يريدني!

لم تعرف ريبيل ما تقول، وأخيراً اختارت كلماتها ببطء وحذر بالغ:

ـ سيليستي، لم يسبق أن كان لعمك أولاد قط، ولهذا لا يعرف كيف يعتني بفتاة في سنّك. حاول أن يحضر لك مربيات ظناً منه أن هذا هو الأفضل لك. هو لا يفهم لماذا تتخلصين منهن دوماً، وهذا يغضبه لأنه لا يدري ماذا يفعل.

وسكتت ريبيل لكي تدع كلماتها تغوص في ذهن الطفلة، ثم أضافت برقّة: «هل حاولت مرة أن تخبريه بما تريدين أن يفعل؟»

أجابت الطفلة متجهمة: «إنه لا يصغي إليّ!»

اختلقت ريبيل كذبة اعتبرتها مسوّغة:

ـ لقد طلب مني البقاء في داڤينبورت هول لأنه اعتقد بأنك قد

تحبين ذلك. إذا حاولت أن تتحدثي إلى عمك، فقد يفهم الأمور بشكل أفضل.

ثم أضافت بصوت رقيق وهي تضم الطفلة إليها بقوة، وتملّس شعرها:

ـ بعض الناس يهتمون كثيراً في داخلهم، لكنهم لا يعرفون كيف يظهرون مشاعرهم، هل تتذكرين ما أخبرتك به أمس؟ بعض الناس يضحكون تغطية للحرج أو غيره، أو يقولون أشياء غبية. وآخرون يعبسون ويظهرون الجد، مثل عمك، والاستياء والغضب منهم لا يغيّر شيئاً. وإنما يجعل الأمور أسوأ، ولكن إذا حاولت تغيير تصرفاتك معهم، فهذا يمنحهم فرصة لتغيير تصرفاتهم. أظن أن الأمر يستحق المحاولة.

كان الجواب الوحيد تنهيدة أخرى. وتابعت ريبيل تمليسها شعر الطفلة وقد وجدت نفسها لا تدري ماذا تقول.

نامت الطفلة أثناء الطريق إلى دافينبورت هول، وقررت ريبيل أن تناقش الأمر مع هاغ مرة أخرى، وأن تقوم بذلك قبل موعد نوم سيليستي، فتحية أخرى من تلك التحيات المسائية الجليدية قد تميت الأمل في قلب سيليستي.

ما إن وصلوا إلى المنزل، حتى سنحت لريبيل الفرصة التي كانت تريدها، فقد فتح لهما بروكس الباب وهو يخاطبهما بقوله:

ـ آنسة جايمس، لايدي سيليستي.. طلب سيدي اللورد أن يراكما عند عودتكما.

ابتسمت ريبيل لسيليستي على الفور:

ـ هل رأيت؟ كان عمك قلقاً لتأخرنا. سأذهب وأطمئنه إلى أننا بخير، وبما أن هذا الوقت هو موعد الشاي لك، الأفضل أن تذهبي

إلى المطبخ.

ورفعت ابتسامتها إلى رئيس الخدم: «أين هو اللورد دافينبورت؟»

ـ أعتقد أنه في مكتبه، يا آنسة جايمس.

ـ سأوافيك إلى غرفتك في موعد نومك، يا سيليستي.

وعدتها بذلك ثم أسرعت إلى المكتب، مصممة على سحق تحامل هاغ على الطفلة.

لم تسمع جواباً على قرعها باب المكتب، ولأنها لم تكن واثقة من أن هذا هو باب المكتب حقاً، فتحته لتنظر في الداخل. وسرعان ما جالت نظراتها في أنحاء مكتب رائع للغاية يحتوي على كثير من المعدات المكتبية، بما في ذلك جهاز كمبيوتر شخصي. كان هاغ جالساً على مقعد جلدي، خلف مكتب ضخم، مستديراً نحو النوافذ المستطيلة خلف المكتب.

ـ من هناك؟

ألقى هذا السؤال دون أن ينظر ليرى من القادم.

تنفست ريبيل بعمق، مشجعة نفسها على المواجهة التي عليها أن تفوز بها:

ـ أنت أردت رؤيتي يا هاغ؟

قفز عن كرسيه بحركة رشيقة، ملتفتاً إليها وقد بدا عليه الراحة البالغة وهذا ما جعلها تحبس أنفاسها. وشمل بنظراته، جسدها البادي الأناقة بالطقم الأخضر الضيق، وهو يتقدم نحوها.

كان يرتدي ملابس عفوية، لم تره يرتدي مثلها من قبل.. بنطلوناً رمادياً وكنزة قاتمة الزرقة تظهر تقاسيم جسمه الرائع الفياض رجولةً وقوة، وشعره الأسود الكث مشعث قليلاً، كأنه كان يتخلله

بأصابعه. ولأمر ما، جعله هذا يبدو أكثر إنسانية وجاذبية.

مدّ يده بإشارة صغيرة وهو يقول: «لقد عدت إذن؟»

ـ طبعاً!

فقال بحدة: «كلمة طبعاً لا تعبّر عن شيء، بعد كل ما قلته لك، كان من الجنون أن تأخذي الطفلة معك اليوم. أعلم أنني سمحت لك أن تتصرفي معها كما تريدين، ولكن...»

وهز رأسه وتنفس بعمق، وقال بصوت أهدأ:

ـ اللوم يقع عليَّ شخصياً، أخبريني فقط عن الضرر الذي ألحقته بك وسأفعل ما أستطيعه لإصلاح ذلك.

قطبت ريبيل جبينها بحيرة: «أي ضرر تتحدث عنه؟»

قال بغضب:

ـ لا فائدة من التغطية، يا ريبيل، فهذا سيتكرر. أعلم جيداً أن سيليستي تحدث الفوضى والدمار أينما حلّت. أخبريني فقط ماذا فعلت، وسأبذل جهدي لإزالة أي ضرر ألحقته بعملك.

نسيت ريبيل كل شيء عن الكلام المنطقي الهادىء، وهي ترد عليه بمرارة:

ـ ها أنت تحكم عليها من دون أن تستمع إلى دفاعها. وهذا ما قمت به على الدوام أليس كذلك؟ فأنت لا تعطيها فرصة أبداً!

أصابه هذا الاتهام بالإرتباك، فاستمرت هي في الهجوم:

ـ لقد وثقت بابنة أخيك فكانت مثالاً للباقة والاحتشام أثناء قيامي بعملي. لم تخذلني! ولا أظن أن هناك طفلاً يمكن أن يتصرف بشكل أفضل. والواقع أنها ساعدتني في الحصول على أكثر مما توقعت. ولن أتردد في أخذها معي إلى أي مكان آخر، هل تعلم ما هو سرّ ذلك؟ إنه، ببساطة، الثقة بها وإشعارها بأن صحبتها مرغوبة. كل

طفل يتجاوب مع ذلك، يا هاغ داڤينبورت. وسيليستي غير مختلفة عن أي ولد آخر، إلا أنها لم تكن تجد شخصاً يرغب فيها. ذنب من هذا؟ هل ذنبها أنها وُلدت من أبوين لا يحبانها؟ هل ذنبها أنها وُضعت في رعاية رجل أدانها بأمها؟

ـ هناك سبب!

قال ذلك بحدة، وعيناه تتصارعان بمرارة مع ازدرائها، لكن ريبيل اندفعت تطعن ضميره كنمرة تدافع عن أشبالها.

ـ قف فقط واسأل نفسك لماذا تتصرف سيليستي بهذا الشكل؟ سأخبرك كيف تصرفت معي هذا النهار! لقد استمتعت بصحبتي، وحصلت على ما ينبغي أن يحصل عليه جميع الأولاد، أو بالأحرى ما كان على أبويها أن يمنحاها إياه، ولم يفعلا! ما كان عليك أن تمنحها إياه مكان والديها، ولم تفعل! ما كان على المربيات أن يمنحنه ولم يفعلن. للمرة الأولى في حياتها، شعرت بأنها في الجنة.

ـ لا أشك في ذلك، حتى فراخ الشيطان قد يستمتعون بمذاق الجنة، فقط لأن لكل جديد بهجة!

أذهلتها وحشية هذا الجواب فسكتت مصعوقة، وحدقت في خصمها وكأن قروناً نبتت له فجأة، فقال ساخراً:

ـ من الواضح أنك لوّحت لها بجزرة أعجبتها فالتهمتها.

طفحت عينا ريبيل بازدراء غاضب:

ـ نعم! لا شك أن الأمر كان جديداً عليها، ما دام كل ما حصلت عليه في حياتها هو طرف العصا الخشنة، لقد بدأت أرى أنك أنت هو الغول، يا هاغ داڤينبورت، وليس ابنة أخيك.

ـ أنا غول؟!

واختطف أوراقاً من مكتبه هزها في وجهها وهو يتجه إليها قائلاً

بحدة بالغة:

ـ لقد أمضيت معظم هذا النهار وأنا أتصل بأكبر أصحاب دور الأزياء في فرنسا وألمانيا، أقنعهم بأن يشتركوا في سباق مناطيدك، وقد وافقوا على عقد اجتماع معك، في باريس يوم الجمعة القادم.

ثم أمسك بيدها ودس الورق في يدها بعنف:

ـ ها هي الأسماء والمعلومات التي عليك معرفتها عنهم قبل أن تتناقشوا في العمل. وقد قمت بهذا لأنقذك من تهورك الجنوني الذي سيدمرك على يدي سيليستي، لقد نجوت هذه المرة. أما إذا قمت بالمخاطرة مرة أخرى، لا يمكنني إلا أن أقول، فليساعدك الله!

توترت أعصاب ريبيل لقربه منها ولشعورها بالغضب الذي يفيض منه. ولكن لم يكن هناك ما يجعلها تتراجع الآن. فقالت بحدة:

ـ هل هذا ما تريد أن تشتريني به؟

ـ ارحلي ما دام النجاح أمامك، يا ريبيل!

ـ وأترك سيليستي لرحمتك وحنانك؟!

وارتجفت ساقاها، لكنها سارت إلى مكتبه حيث ألقت بالأوراق عليه، ثم استدارت تواجهه، وعلى وجهها ازدراء متكبّر:

ـ لا أريد هذا الدعم منك! يمكنني تدبر أمري بنفسي.

فصرخ بها: «لا تكوني حمقاء لعينة!»

فانفجرت به غاضبة: «هذه جرأة بالغة منك، يا هاغ دافينبورت. أنت تكلمني كما تكلم سيليستي!»

توترت ملامحه وهو يجاهد للسيطرة على نفسه، ثم اندفع نحو الباب يفتحه:

ـ اذهبي في سبيلك إلى جهنم، إذن! أنت لا تعقلين الكلام!

قالت بتصميم وتحدٍّ: «لم أنته بعد!»

عاد يغلق الباب، محاولاً تمالك غضبه، وحملقت هي فيه، مصممة على ضربه إذا بقي على تحامله المؤذي هذا. ثم تنفست بعمق وهي تقول:

ـ هل حدث أن مددت يدك إلى تلك الطفلة بعطف؟ هل حدث أن أخذتها بين ذراعيك أو قبلتها تحية المساء؟

منظر التغير المفاجئ في وجهه كان جواباً كافياً.

ـ لا، لم تفعل! هذا ما توقعته!

قال ببرودة: «لا يمكن لشخص أن يشعر بالعطف على طفلة بتلك الطبيعة».

ـ النبذ هو ما شكّل طبيعتها هذه، يا هاغ. وقد ساهمت أنت بذلك بالامتناع عن إقامة أي صلة معها.

ـ أقيم صلة بابنة كريستين؟!

وأطلق ضحكة استخفاف خشنة.. غالبت ريبيل الضباب الأحمر الذي غلف المرئيات أمامها، وقالت بعنف:

ـ لا ينبغي أن يُؤخذ الطفل بذنب أبويه. كان أبي مجرماً، قاسياً، نذلاً. ولكن هذا لم يجعلني مثله.

توترت ملامحه، وألقى عليها نظرة أرسلت القشعريرة في جسدها:

ـ هل انتهيت تماماً؟

ـ لا. لم أنته. قلت الليلة الماضية إنك ما زلت تملك ضميراً، ومن الأفضل أن تبدأ بفحصه، لأنك مخطىء بالنسبة إلى سيليستي. إنك مخطىء بشكل مدمّر، وإذا لم تبدأ بالاعتراف، وتمنحها فرصة تريك فيها أنك مخطىء... فليساعدها الله إذن. لأنك أنت الغول!

حدق إليها بنظرة متحجرة، دون أن يعلّق بشيء.

بحثت ريبيل عن كلام آخر تقوله، فوجدت أن الوضع ميؤوس منه. لقد أعلن الليلة الماضية أن ابنة أخيه لا يمكن التفاهم معها. تأوهت مهزومة وقالت بحزن:

ـ سأوفر على أنفسنا كل مظاهر النفاق في إحضار سيليستي لتقول لك تصبح على خير.. ولا أريد أن أفسد عليها النهار الجميل الوحيد الذي أمضته هي.

لا جواب.

سارت نحو الباب تجر ساقيها مهزومة. ومسّها شيء في نفسها جعلها تقف وتنظر إليه، متفحصة القناع الصلب الذي يكسو ملامحه. لقد ظنته الليلة الماضية رجلاً طيباً، عاطفياً، رقيقاً.

دون وعي منها، مدت يدها تلامس خدّه بلطف، وهمست بصوت أجش، وعيناها تعكسان عذاب روحها الصامت:

ـ كيف أمكن أن يخطئ حدسي فيك بهذا الشكل؟!

اللمسة الرقيقة، وربما الكلمات، حركت شيئاً في أعماقه. إذ انقبض خده تحت راحتها. اندفع نفسه من بين شفتيه فحيحاً والتهبت عيناه بوهج خطر:

ـ تباً لك!.. ألا تعلمين متى تتوقفين؟

ونزع يدها عن خدّه لكنه أمسك بها معلقة في الهواء يدعكها بأصابعه.. مضت عدة لحظات دار فيها صراع مرير على وجهه المتوتر المتجهم وما لبث أن مد يديه يشدّها إليه، ثم ترك يدها ودسّ أصابعه في كتلة شعرها وعيناه تتوقدان في عينيها بإلحاح. ثم انحنى إليها يعانقها بشغف ونهم.

اشتدت ذراعه حولها يحتضنها بشكل مسيطر حرّك في أعماقها مشاعرها.. كانت ترتجف أمام قوته التي كانت تفرض عليها الإذعان

والتفت ذراعاها حول عنقه متجاوبة مع مشاعرها.. كانت متلهفة إليه، وكان اندفاعه إليها عاصفاً.. في هذه اللحظات شعرت بأن كل شيء في حياتها دار حول محوره واتخذ شعوراً مختلفاً.

في مكان ما من أعماقها، كان ثمة إحساس خفي بأن هذا ما كانت حياتها تقودها إليه. كل ما فعلته خلال سنوات لبناء شخصيتها المستقلة ترنّح الآن واستحال ضباباً غير حقيقي. أما الواقع الوحيد المحسوس فهو الشعور العنيف بالانتماء إلى هذا الرجل الذي يحتضنها، الذي غذّت هي، بطيش وتهور، جوعه إليها.. همس في أذنها:

ـ تعالي معي إلى فرنسا، إيطاليا، إسبانيا... سآخذك إلى أي مكان تريدين..

لم تستطع أن تفكر، ومضت عدة لحظات أدركت في نهايتها موضع الخطأ.

ـ سيليستي..!

فقال بخشونة: «إنسيها!»

صرخت بألم: «لا أستطيع!»

وكيف تنسى طفلة هي أشبه بتلك الطفلة الضائعة التي كانتها هي ذات يوم؟

تراجع إلى الخلف، محتوياً وجهها بين كفيه، محدقاً في عينيها:

ـ دعيها، يا ريبيل... لأنها ستكون حائلاً بيننا.

ـ ألن تمنحها فرصة؟ أرجوك يا هاغ! أرجوك!

أخذت تتوسل إليه، وقد مزقها الصراع بين متطلبات الإثنين، في قلبها..

اصطبغت ملامحه بألم مبرّح:

- بحق الله، لا تدعيها تؤثر عليك بهذا الشكل! يمكننا أن نحظى معاً بشيء ما، يا ريبيل، تعالي نرحل معاً و...

وسحبت وجهها من بين كفّيه ثم تراجعت إلى الخلف:

- لا! لا يمكننا أن نحظى بشيء على الإطلاق معاً، لا أستطيع.. لا يمكنني أن أشعر بشيء نحو رجل يرفض منح فرصة لطفلة!

وقبل أن يقول شيئاً يغريها بالتراجع، اندفعت نحو الباب تفتحه وتهرب، ناداها ولكنها لم تتوقف. لم تتوقف إلا حين أغلقت باب غرفتها خلفها... ثم ألقت بنفسها على السرير وانفجرت باكية.

* * *

٨ ـ نصر مؤلم

لم تكن ريبيل ميالة إلى البكاء. ولكنها ما كادت تلمح بصيصاً من السعادة والأمل حتى تبدّد أمام عينيها. لم تشعر بمثل هذا الضعف منذ وقت طويل.. وها هو الألم مدمّر ساحق، تكاد لا تستطيع احتماله.

ومع ذلك عليها أن تحتمل.

كانت سيليستي تنتظر منها حكاية قبل النوم، ولن تخذلها ريبيل، فهذا سيدمر كل النجاح الذي حققته معها اليوم، علماً أن بعضه سيدمره حتماً عم الفتاة الصغيرة. وتملك ريبيل اليأس وهي تفكر في ذلك. مهما يكن من أمر، عليها أن تتمالك نفسها وتقوم بواجبها نحو الطفلة، دون اعتبار لمشاعرها الخاصة. فهي لم تكن تلك التي تباشر شيئاً دون أن تنهيه، مهما قال هاغ دافينبورت أو فعل، فهي ستقف بجانب سيليستي إلى أن تصبح طفلة طبيعية متماسكة يُعتمد عليها، وذات مبادئ إيجابية.

كانت الطفلة جالسة في سريرها تنتظرها عندما دخلت ريبيل.

جعلت بهجة اللقاء على وجهها ابتسامة ريبيل أقل تكلفاً، واستطاعت أن تضفي مزيداً من المتعة على حكايتها عن كلب الراعي، وازداد ضحك سيليستي عندما وصلت بالحكاية إلى إصرار الراعي على أن لا يدع الطبيب يعالج جراحه قبل أن يعالج جراح الكلب

www.elromancia.com

أولاً، قائلاً للطبيب: «إن الكلب أكثر إنسانية منك، يا دكتور».
وتابعت ريبيل حكايتها. كانت الطفلة ما تزال تضحك عندما انتهت الحكاية وأخذتها ريبيل بين ذراعيها لتعانقها.

وإذا بالضحك يختنق فجأة ويتصلب الجسد الطريّ بين ذراعيها، لم تكن ريبيل بحاجة إلى الالتفات لتعرف ما الذي غير هذا الجوّ السعيد.

ماذا يعني هذا؟ هل غيرّ هاغ رأيه؟ وهل يفكر في منح سيليستي فرصة؟ أم أنه جاء ليتحدى حكم ريبيل على ابنة أخيه؟ لكي يثبت أنها مخطئة وأنه على صواب؟

أخذت ريبيل تدعو من كل قلبها أن يكون منفتح الذهن، وأن يكون قدومه فاتحة خير.. أخذ قلبها يخفق وهي تفكر في كيفية إعداد سيليستي ذهنياً لمواجهة عمها، فالكثير متوقف على الدقائق القليلة التالية، الكثير بحيث خافت ريبيل حتى من التفكير في ما هو آت.

التفتت وهي تضم سيليستي، وقالت بصوت جعلته مرحاً مرحّباً:

ـ هوذا عمك جاء ليراك! أظنه يريد أن يسمع ما فعلته اليوم.

ثم مدّدت الطفلة على وسادتها بلطف، وأحكمت الأغطية حولها ووضعت قبلة على جبينها. حملقت سيليستي في عمها بثبات، فنبهتها ريبيل بقولها:

ـ ها.. ألا تعيدين إليّ قبلتي؟

نظرت إليها الطفلة باستغاثة مذعورة، ثم منحتها قبلة خاطفة على وجنتها، وألقت نفسها على الفراش وهي تحملق في عمها كأنما تتحداه أن يجد خطأً في تصرفاتها.

قالت ريبيل بهدوء:

ـ تصبحين على خير، يا سيليستي.

لم يكن ثمة جواب، وتساءلت ريبيل عما إذا كانت الطفلة سمعتها، فقد كان كل اهتمامها منصباً على ما سيقوله عمها أو يفعله.

لم يكن قد ترك موضعه عند الباب بعد. استجمعت ريبيل قوتها لتواجهه بشكل طبيعي قدر المستطاع، ثم نهضت من جانب السرير وسارت نحوه، راسمة على فمها ابتسامة حازمة، ثم قالت بمرح:

ـ سأترككما معاً.

لم تبشر ملامحه المتوترة بإذابة الثلج بينه وبين ابنة أخيه. وألقت عيناه السوداوان على ريبيل نظرة عنيفة متحدية بدّدت أي أمل في إقامة هدنة في معركتها، لكن المشهد فرض نفسه ولم يكن أمامها سوى ترك الأمور تأخذ مجراها.

وضع ابتسامة على شفتيه، متجاوباً بسخرية مع ابتسامتها، وقال فاتحاً لها طريق الخروج:

ـ شكراً.

لم يغلق الباب خلفها وهذا ما سرّها. إذ مكّنها ذلك من الوقوف بعيداً عن النظر، إنما على مسافة تستطيع معها سماع ما يدور بين الخصمين. لم تشعر بالذنب لأنها ستسترق السمع. إذا ساءت المواجهة، تستطيع التدخل لإصلاح الأمور.. أو هذا ما حدثت به نفسها على الأقل، لكنها كانت ترجو حدوث معجزة، معجزة تنفخ الحياة في وعود المستقبل. قال هاغ:

ـ سمعت أنك أمضيت يوماً حافلاً في لندن.

لا جواب.

ـ هل استمتعت بوقتك، يا سيليستي؟

فأجابت متحدية: «نعم».

قال بنبرة اهتمام خفيفة:

- ماذا فعلت؟

شعرت ريبيل تقريباً بدوار لفرط الشعور بالراحة. إنه يحاول، شكلياً على الأقل. وتلهفت إلى أن تتجاوب الطفلة معه.

قالت بلهجة تجمع بين الزهو والخصام:

- وقعنا اتفاقية اشتراك لسباق المناطيد، وحصلنا على وعد باثنين أيضاً. ثم أكلنا طعاماً خفيفاً، وركبنا في زورق سار بنا تحت كل الجسور.

ساد صمت، وأمسكت ريبيل أنفاسها، متسائلة عما سيفعل هاغ. لا شك أن سيليستي تتوقع منه التوبيخ وتعد نفسها للرد على ذلك بعنف.

- يبدو أن هذا كان ممتعاً للغاية.

كادت ريبيل تشعر بدهشة سيليستي. لم تعرف كيف ستتصرف، وعندما يجيء الجواب، سيكون، طبعاً، شكلاً آخر من التحدي.

- يمكنني أن أتعلم من ريبيل أكثر مما أتعلم من أي مدرسة، حتى من الجامعة!

أجفلت ريبيل وهي تسمعها تردد كلماتها هي التي كانت قالتها بشكل عفوي. فالأطفال يلتقطون أكثر الأقوال غباء، ثم يحوّرون معناها.

- ربما أنت على حق، ربما تستطيعين ذلك.

كان هذا التنازل منه غير منتظر على الإطلاق، حتى بالنسبة إلى ريبيل.

ساد صمت، ثم تبعته تنهيدة عميقة، ثم، وبرقة فائقة، قال:

- تصبحين على خير، يا سيليستي!

لا جواب.

أصيبت ريبيل بخيبة أمل. يا ليت سيليستي تجاوبت بشكل أكثر إيجابية!

- عمي هاغ...

قالت ذلك بصوت خافت غير واثق.

- نعم، يا سيليستي؟

وكان صوته أقرب إلى الباب.

لا جواب.

- أتريدين شيئاً؟

- هل يمكنني أن أحصل على كلب؟

- كلب؟!

غار قلب ريبيل، فقد أنبأ صوته عن الاستياء، وهتف قلبها به أن يعطيها كلباً.

قال مشككاً:

- وهل يمكنك العناية به، يا سيليستي؟ لا أظن من الصواب...

- سأعتني به، يا عمي هاغ. أنا أعدك بذلك حقاً وحقيقة، وإذا أصابه ضرر، أستدعي له طبيباً، ولن أدع أحداً يضعه خارجاً في أي مرج قديم، وسأتأكد من أنه أكل حتى قبل أن آكل أنا طعامي. يمكنني أن أنام في سريري و...

تراكمت كلماتها المتلهفة فوق بعضها بعضاً، فلم تستطع ريبيل منع نفسها من الابتسام من الطريقة التي اقتبست سيليستي بها قصة الراعي وكلبه، وتمنت لو أن لعمها قلباً ليتجاوب.

- حسناً، إذا كنت تريدينه أن يعيش داخل البيت، ربما من الأفضل أن يكون من نوع «يوركشاير».

- أتعني أنك ستدعني أقتني واحداً؟

ـ ولم لا؟ سأتصل بتجار الكلاب غداً وأرى إن كان عندهم واحد من هذا النوع. فإذا وفقنا سنذهب معاً لكي تختاري الذي تريدينه بنفسك.

أطلقت ريبيل آهة راحة عميقة. لقد اتخذ أكثر من مجرد خطوة إيجابية.. كان يبذل جهده في المحاولة. هناك أمل في المستقبل.

ـ هل ستأخذني؟

لم تستطع الطفلة أن تصدق تماماً.

ساد صمت قصير، ثم قال بحزم:

ـ نعم، سآخذك يا سيليستي، هذا وعد مني.

وساد صمت أطول، ثم قالت بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ عمي هاغ؟ قالت ريبيل...

ـ هممم... وماذا قالت ريبيل؟

كان صوته أبعد الآن، كان يسير عائداً إلى السرير.

ـ قالت إن علينا، قبل النوم، أن نتعانق ونتبادل القبل تحية المساء، وبهذا ننسى كل الأشياء السيئة التي حدثت قبل الذهاب إلى النوم.

ـ يبدو أن هذا شيء حسن، لا أظن أن أحداً علّمني ذلك من قبل.

ـ ليس تعلّمه صعباً.

مضت لحظة صمت عميق قال هاغ بعدها:

ـ سيكون جميلاً أن ينسى المرء الأشياء السيئة. هل لك أن تعلميني كيف يكون ذلك؟

ـ حسناً! أضع ذراعيّ حول عنقك بهذا الشكل، وبعد ذلك تضع ذراعيك حولي وتشدّني إليك.

ـ بهذا الشكل؟

ـ نعم، وبعد ذلك تدعك خدك بشعري.

ـ بهذا الشكل؟

وأنبأ الصمت الذي تلا ذلك، عما حدث.

لقد عرفت ريبيل الآن كل ما كانت تريد معرفته، وأي شيء أكثر من ذلك هو تطفّل.

عادت إلى غرفتها وقد امتلأ قلبها غبطة، إلا أن تمالكها لنفسها كان أقل من أن تستطيع معه مواجهة هاغ، وسيكون ذلك مناسباً عندما تنزل إلى غرفة الجلوس في موعد العشاء.

خلعت ريبيل ملابسها استعداداً للاستحمام. وكانت على وشك دخول الحمام عندما سمعت طرقاً على بابها، فارتدت معطفها المنزلي بسرعة، ثم صاحت دون أن تفكر في أن القادم قد لا يكون الخادمة.

ـ ادخل!

خرجت من غرفة الملابس وهي تربط حزام المعطف، وإذا بهاغ يقف داخل غرفتها.

تملكها الاضطراب، وكانت في غاية الخجل لأنها لا ترتدي تحت المعطف الحريري الرقيق القماش إلا ملابسها الداخلية. أخذت تتحسس أطرافه بتوتر، وهي تنتظر أن يتكلم وقد جف فمها تماماً.. نظراته أرسلت في كيانها تياراً كهربائياً. وتسارعت أنفاسها، وأخذ قلبها يخفق، كأنه يطلب منه أن يتصرف... يقوم بأي شيء ينهي هذا القلق المخيف.

عندما تكلم، لم يشر إلى الأزمة التي نشأت بينهما على الإطلاق.

ـ نسيت أن أخبرك أن هناك ضيوفاً قادمين للعشاء هذه الليلة، ويريدون أن يقابلوك خصيصاً، بشأن الأيتام الذين كانوا شحنوا إلى أستراليا.

تسربت كلماته الجافة إلى ذهنها المشوّش، ببطء، وسألته: «من هم؟»

سألته ذلك بعد أن أدركت أنه غير مستعد لكشف مشاعره نحو سيليستي، وأنه لم يحضر ليتابع ملاحقاته العاطفية لها. وهذا الاستنتاج سبب حطّ معنوياتها وصدمها.

ـ مالكولم بايرد وزوجته روزالين.

قال ذلك بخشونة وكأنه يريد أن يوقف تفجر تلك المشاعر الجياشة الموشكة على تمزيق حياته وحياتها معاً، ثم تابع بسرعة:

ـ كنت أخبرتك الليلة الماضية أن مالكولم جاء إلى هنا منذ مدة، وهو مهتم بدراسة عن الأيتام الذين أحضروا إلى دافينبورت هول أثناء الحرب. لعل بإمكانه أن يعرف أين كانوا قبل مجيئهم إلى هنا، وهكذا قد نتمكن من اقتفاء أثر أسرة أمك. فكرت في أنك قد تودّين التحدث إليه.

ـ هذا لطف منك، يا هاغ.

تمتم بسخرية وتأنيب: «من غول مثلي!»

ـ لا تقل هذا!

قفزت هذه الكلمات إلى فمها وهي تتقدم نحوه. فرفع يده بإشارة من يدفع عنه الأذى، وقال بكبرياء أرستقراطية: «دعي ذلك، يا ريبيل!»

جمدت مكانها، ورأته يبتلع ريقه بشكل متشنج. ثم، وكأنها طبيعة فيه، قال بصوت مجرد من كل شعور، إنما بأدب بالغ:

ـ اتصلت بمالكولم بايرد هذا الصباح. وقد اهتم عندما علم أن الأيتام شحنوا إلى أستراليا، وأراد أن يعلم المزيد عن ذلك. بدا حريصاً على التعرف إليك، فكان أن دعوته وزوجته إلى العشاء. إنهما زوجان مسنان، وقد حان وقت وصولهما... والآن أستأذنك بالانصراف.

ـ طبعاً. وشكراً.

بقيت فترة طويلة تحدق في الباب الذي انغلق خلفه، شاعرة بصقيع النبذ يزحف في كيانها. لقد واجه، بسببها، حقيقة أثقلته بشعور الذنب والخزي لأنه أساء الحكم على طفلة بريئة وعاملها بقسوة. إن ريبيل تعرف حقيقة شعوره الآن، وهذا بالنسبة إليه شيء لا يطاق، خصوصاً بسبب التجاذب بينهما.

من سخرية القدر أنها انتصرت. لكن هذا الانتصار أدى بها إلى خسارة أمنية قلبها. لا نصر دون تضحية، ولكن هذا لم يخفف عنها. فبينما كانت تتطلع إلى تسوية قد تتمخض عن سعادة غير محدودة، انغرزت الحقيقة إسفيناً بينهما.

لم تشكّ لحظة واحدة في أن هاغ سيفي بوعده للطفلة، بعدما أدرك مبلغ خطئه. لكن لا أحد يقلع عن عادةٍ سيئة من دون أن يصيبه عسر هضم، كما يقول المثل. مهما يكن من أمر، فإن أساس التفاهم قد وُضع، وهذا ما يشكل عزاء لها.

كان الوقت يمر بسرعة. وأرغمت ريبيل نفسها على الاستعداد لمقابلة أولئك القادمين لرؤيتها. أثناء ذلك أخذت تدرب نفسها على التوقف عن التفكير بهاغ وسيليستي، وذلك بحصر اهتمامها بمسألة اقتفاء آثار أسرة أمها.

من المهم أن تعلم من أي بلد جاءت أمها وكيف أصبحت هي

يتيمة، لكن ريبيل لم تهتم بفكرة العثور على أقارب، سيكونون غرباء بالنسبة إليها. هذا عدا عن أنها لاتستطيع أن تنسى أنهم لم يحاولوا احتضان أمها والطفلة اليتيمة.

إلى ذلك، لم تكن تريد أسرة أخرى غير أسرتها، ربما من الأفضل لتراثها الأسود أن يبقى أسود. فهذا غير مهم في الواقع. إنها راضية بشخصيتها الحالية، وتريد من الآخرين أن يحكموا عليها من خلالها، وليس من خلال شخصية أبويها. وسيليستي هي درس عمليّ في هذا الشأن.

عندما ألقت النظرة الأخيرة على صورتها في المرآة، ابتسمت بأسى لاختيارها هذا الثوب. لقد تجنبت تلقائياً الألوان البراقة، واختارت لوناً هادئاً. كان ثوباً هادئاً، لكنه أنثوي تماماً وأنيق بتنورته الواسعة المستديرة.

وبعدما شعرت بالرضا لمظهرها اللائق أمام مؤرخ إنكليزي وزوجته، هبطت السلم بخطوات واثقة نوعاً ما، غير أن هذه الثقة اهتزت عندما وصلت إلى باب غرفة الجلوس. فهي لن تواجه مالكولم بايرد وروزالين فقط... وإنما ستواجه هاغ أيضاً، وسيكون هذا المساء مشحوناً متوتراً بالنسبة إليهما معاً. وإذا استطاع هاغ أن يكون لائقاً ومهذباً، فستكون هي أيضاً على مستوى المناسبة. فالتهذيب والكياسة ليسا وقفاً على اللوردات.

على كل حال، وجدت ريبيل صعوبة في المحافظة على توازنها وثباتها عندما دخلت إلى غرفة الجلوس ورأته. كان طاغياً شديد الوسامة في بذلته السوداء الرسمية، فبذلت جهداً لتحويل نظراتها عنه وركزتهما على الضيفين اللذين نهضا واقفين لدى دخولها. كان مالكولم بايرد أشيب الشعر ذا وجه نبيل، وشعر زوجته لم يكن أقل

بياضاً، ولكنه مسرّح على شكل خصلات قصيرة تحيط بوجه ما زال جميلاً رغم السنين.

تقدم مالكولم بايرد ليحييها بينما كان هاغ يقوم بواجب التعريف. أخذ الرجل المسنّ يدها بيديه الاثنتين، وابتسمت عيناه طويلاً لعينيها اللتين أطال النظر إليهما ما جعلها تتراجع إلى الخلف، إذ لم تكن تحب أن ينظر الناس إلى عينيها عن كثب، ولم تكن تحب أيّ تعليق عن غرابتهما.

لكن قبضته على يدها اشتدت، تمنعها من الابتعاد. وانحدرت نظراته إلى فكها وزواياه الحادة. تنفس بعمق ثم عاد يرفع نظراته إلى عينيها. وتملك ريبيل الارتباك وهي ترى الدموع في عينيه، ثم قال بصوت متهدّج:

ـ يا طفلتي العزيزة! لا يمكنني أن أعبّر عن بهجتي بهذا اللقاء!

ومدّ يده الأخرى إلى زوجته «روزلين...». تقدمت المرأة المسنة نحوهما، ثم تشبثت بيده وكأنها بحاجة إلى من يسندها. ضمها بذراعه، وأخذا معاً ينظران إلى ريبيل بحنين بالغ زاد في ارتباكها حيال تصرفهما الغريب. التفت مالكولم بايرد إلى زوجته وقال برقة:

ـ لم يعد ثمة شك، الآن، يا حبيبتي. انظري إلى عينيها!

حدقت المرأة في عيني ريبيل، ثم اغرورقت عيناها بالدموع.

ـ آه، يا مالكولم.. بعد كل تلك السنوات...

واختنق صوتها.

تنحنح وهو يجاهد في كبح مشاعره ثم قال موجهاً كلامه إلى ريبيل:

ـ لا بد أنك تجدين هذا غريباً جداً، يا عزيزتي. كل ما نرجوه هو

أن تصبري قليلاً حتى نتمكن من شرح كل شيء لك، ومن الأفضل أن نجلس أولاً.

ألقت ريبيل نظرة تساؤل حادة على هاغ وهم يتوجهون إلى أريكة بجانب المدفأة الضخمة. فقابلها هو بتقطيبة لم تطمئنها على الإطلاق، ودون أن تطلب، أحضر لها كأساً من شراب الليمون، ثم جلس بعيداً عنهم. كان واضحاً لريبيل أنه لا ينوي الاشتراك في ما سيحدث. وهذا ما جعلها تشعر بوحدة بالغة.. نظرت إلى الزوجين متمنية من كل قلبها لو أنهما لم يحضرا... ثم ما علاقة عينيها بالموضوع؟...

تنحنح مالكولم بايرد مجدداً:

ـ لا أدري كيف أدخل في الموضوع. إنها قصة طويلة، ومؤلمة جداً لي ولزوجتي. منذ أكثر من خمسين عاماً فقدنا ابنتنا الوحيدة التي بحثنا عنها في كل مكان، ولكن من دون جدوى، ولم تبرز الحكومة، إلا حديثاً، وثائق عن الحرب وضعتها تحت تصرف الباحثين. وبهذا تمكنت من اقتفاء أثر ابنتي إلى هذا المنزل، داڤينبورت هول. كانت واحدة من مجموعة أيتام اقتادوهم إلى هذا المنزل أثناء الحرب، ولكن الأثر توقف هنا. كل السجلات الأخرى أُتلفت. لقد فقدنا الأمل بشأن معرفة مصير ابنتنا حتى اتصل بنا هاغ هذا الصباح.

شعرت ريبيل بارتياح كبير إزاء هذا الشرح. وتعاطفت مع الزوجين في مأزقهما. إن انتعاش آمالهما فجأة، في العثور على ابنتهما، بعد أن كبرا في السن، يمنحهما عذراً مؤكداً لهذا التصرف العاطفي نحوها، على الأقل هي التي حملت إليهما البشارة. فقالت بتعاطف شديد:

ـ حسناً، يمكنني أن أساعدك في ذلك، يا سيد بايرد. كل الأيتام

قد شحنوا إلى أستراليا على الباخرة «ستراتفيلدس»، وقد تجد سجلات في هذا الشأن.

فأجاب بحزن: «يا عزيزتي، نعلم أننا لن نعثر على ابنتنا قط، لقد فقدناها إلى الأبد. أما تعزيتنا، إذا سمحت أنت، فهي أننا وجدنا حفيدة».

قطبت ريبيل جبينها بارتباك: «إذا أنا سمحت...؟».

توقف قلبها عن الخفقان. فطريقة نظرتهما إليها... وبخاصة إلى عينيها... هزت رأسها، من غير الممكن تصديق هذا! وألقت نظرة حادة متسائلة على هاغ داڤينبورت، ولكنه كان يتأمل في الكوب الذي بين يديه، فعادت تنظر إلى الزوجين، قائلة:

ـ لا أظنني أفهمكما.

ـ أعلم أن هذا قد يمثل صدمة لك. صدمة سارة، كما نرجو.

قال مالكولم ذلك بلهفة وهو يشدّ على يد زوجته:

ـ أخبرني هاغ أن اسم أمك ڤاليري غريفيث، وأنك جئت إلى داڤينبورت هول آملة أن تعرفي شيئاً عن حياتها، وقد جئت أنا إلى هنا منذ زمن لنفس الغرض. ترين يا عزيزتي أن ڤاليري غريفيث كانت ابنتنا وأنت... لم يعد ثمة شك في ذلك الآن. هناك ملامح أسرية مميزة تثبت ذلك... أنت حفيدتنا.

حدقت ريبيل في وجهه، ولاحظت لأول مرة أن شكل فكه مماثل لشكل فكها رغم تقدمه في السن. لكن عينيه كانتا بنيتين، أما زوجته... وشعرت بالدوار وهي ترى نفس عينيها العسليتين المتموجتين في وجه روزالين.

إنهما جدّاها لأمها!.. هما ثريان.. فكيف لهما أن يفقدا ابنتهما

الصغيرة! وشعرت بالغضب لما حلّ بوالدتها. قال بتوتّر:

- وكيف فقدتما ابنتكما؟ كيف تركتماها تذهب؟ أمي.. أمي...

وخنقتها غصة، ثم قفزت واقفة. لم تستطع النظر إلى هذين اللذين كان بإمكانهما أن يمنحا أمها حياة آمنة مرفهة، ولم يفعلا. نفرت من قربهما ولكنها لا تدري إلى أين تذهب.

أوقفها هاغ مكانها، فحملقت إليه بكراهية لأنه رتّب هذا اللقاء.

حدثها عقلها بأنها غير منطقية في موقفها وتصرفها، لقد دعا هاغ الزوجين بايرد إلى هنا لأجلها، وكان ذلك تصرفاً شهماً منه. لكنها لم تكن تريد ذلك، لقد أنجبتها أمها بمفردها، وأنشأتها بمفردها وماتت بمفردها. إنها لا تريد معرفة لماذا لم يحتضنا ابنتهما، والدتها.

نظرت العينان السوداوان إليها دون أن تطرفا، وببطء وثبات اخترقتا مشاعرها المضطربة. رفع يده، وبتمهل بالغ، وضعها على خدها، وهو يقول بصوت خافت:

- امنحيهما فرصة، يا ريبيل! أعلم أن هذا مؤلم. أعلم أنك لا تريدين الإصغاء إليهما أو أن تحاولي فهمهما، ولكن قد تكونين مخطئة في نبذهما والابتعاد عنهما، مخطئة جداً، وإذا كنت...

كان يردد صدى كلماتها له عن سيليستي، متحدياً إياها أن تفعل ما كانت طلبته منه. هو يعرف شعورها لأنه اختبر هذا الشعور بنفسه مع ابنة كريستين، وأضاف بمزيد من الإلحاح:

- لم يبق من حياتهما سنوات كثيرة، يا ريبيل!... امنحيهما فرصة!

أرادت أن ترد عليه بأنه هو لم يمنحها فرصة، ونظرت إليه بمرارة تتهمه بالنفاق.

- اصغي على الأقل، إلى ما يقولان. تدّعين أنك عادلة، أليس كذلك؟ أريني إذن كيف تتصرفين بعدالة، يا ريبيل!

قالت ساخرة: «أتكيل بمكيالين، يا سيدي اللورد؟»

رد عليها بخشونة: «أتريدين أن تكوني غولة؟»

- إنني إنسانية أكثر مما ينبغي، لسوء الحظ.

- وعرضة لارتكاب الخطأ.

- وأنت أيضاً!

قال موافقاً: «نعم، وأنا أيضاً».

قالت بحدة: «حسناً! سأمنحهما فرصة! أرجو فقط ألا تضطرب أمي في قبرها».

* * *

٩ ـ لقاء في الظلام

.. وكان هاغ على صواب.. تماماً مثلما كانت ريبيل على صواب بشأن سيليستي.

أما كيف فقد مالكولم وروزالين ابنتهما، والدة ريبيل، فهذه حكاية تعود إلى أيام شبابهما حين كانا طالبين معاً في جامعة أكسفورد. لقد أحبا بعضهما بعضاً وقررا الزواج. ولكن الفارق الاجتماعي بين أسرتيهما حال دون موافقة أسرة مالكولم الثرية الأرستقراطية. وما لبثت أسرة روزالين أن عارضت المشروع بسبب هذا الموقف الاستعلائي. هكذا تزوج الشابان رغم إرادة أسرتيهما معاً، وأنجبا طفلة. عند ذلك أرغما على الافتراق، فاحتجز أهل روزالين ابنتهما في بيت أهلها، ثم أخذوا ابنة روزالين ووضعاها في دار للأيتام. أما مالكولم فقد غادر منزله وانفصل عن والده.

ثم وقعت الحرب، وكان مالكولم ضابطاً في الجيش. وفي إحدى إجازاته صادف روزالين في الباص بعد سنوات من الافتراق القسري، فأقسم الاثنان على ألا ينفصلا ثانية، وأعادا تثبيت زواجهما. أما طفلتهما فلم يعثرا عليها بسبب ظروف الحرب واضطرار مالكولم للتنقل في خدمته العسكرية ما بين مصر وإيطاليا والنورماندي وبرلين.

تضاعف حزنهما عندما علما أنهما لن ينجبا بعد ذلك، ولم

يستطع أي منهما نسيان الطفلة التي انتزعت منهما، وعندما وجد مالكولم المرجع الذي يشير إلى إيواء أيتام في دافينبورت هول، جاء واكتشف اسم ابنته على القائمة. غير أنه لم يجد ما يشير إلى المكان الذي نقل إليه الأولاد أثناء الحرب.

شعرت ريبيل بخزي عميق لحكمها المتسرع عليهما. لقد كانت آلامهما أطول من آلام أمها، وكانا ضحيتي أسرتيهما. حاولت أن تعتذر عن سوء تصرفها وأخذت تحدثهما عن كل ما تذكره عن أمها.

ثم أخبرتهما، أثناء العشاء، بعد أن حثها هاغ على ذلك، عن حياتها مع أسرة جايمس، متعمدة التغاضي عن تلك الفترة الفاصلة بين وفاة أمها وتبني تلك الأسرة لها، وبدا عليهما السرور عندما علما بمبلغ سعادتها مع الأسرة التي تبنتها، وكيف شرعت في صنع مهنة لها ونجحت في ذلك.

نظرا إليها بزهو... زهو المتملك. ولأمر ما، لم يعجبها هذا الموقف، إذ لا علاقة لهما بحياتها، فهما لا يزالان غريبين بالنسبة إليها، ورغم أسفها لأجلهما، إلا أنها لم تشعر بالانتماء إليهما، وهذا ما جعلها تعيد النظر في موقفها من شعور هاغ نحو سيليستي. لم يصدق أن الطفلة تنتمي إليه من ناحية القربى، وقد جعلوه مسؤولاً عنها قانونياً رغماً عنه. قد يشعر الآن بالأسف لأجلها، ولكن الحب، أو حتى العطف، فلا يمكن أن يولد خلال ساعات.

أعطاها جداها عنوانهما في لندن، ملحين عليها بأن تزورهما، وتقيم معهما في أي وقت تشاء. لم يلحّا في الطلب، لكن ريبيل شعرت بحاجتهما البالغة إليها. كانا يريدانها أن تسدّ الفجوة المأساوية في حياتهما، ولكن ما كانت هي بحاجة ماسة إليه، هو أن تجد فسحة من الوقت للتفكير.

رافقهما هاغ إلى سيارتهما وبدا مترفعاً حقاً. لقد جلس بعيداً، وكان حريصاً على عدم التدخل في أكثر الأحيان. لكنه أظهر وعياً حاداً بمشاعر ضيوفه في اللحظات المتأزمة. كان مضيفاً مثالياً، وتمنت ريبيل لو أنها مثله في سلوكه الخالي من العيب. كانت تعلم أن النوم سيجافيها هذه الليلة رغم تعبها الشديد، فقد حدث الكثير مما أثقل على عقلها وقلبها وروحها. وبشكل آلي، صعدت السلم متوجهة إلى الطابق الثاني قبل عودة هاغ من توديع ضيفيه.

ما إن دخلت غرفة الدرس، حتى هاجمها مرة أخرى ذلك الشعور بانعدام الزمن. وسرى في كيانها نوع غريب من السكينة وهي تسير في أنحاء الغرفة ببطء، تلمس المكاتب، اللوح الأسود القديم، الحصان الهزاز الذي دفعته بيدها فتحرك بالرغم من الزمن. خلعت حذاءها وتكورت على إحدى الأرائك بجانب النافذة، ومالت برأسها على زجاجها تنظر إلى الخارج.

ستتغير حياة سيليستي الآن، وربما حياة هاغ أيضاً. أما بالنسبة إليها، فقد جرّتها أمها إلى هنا.. وإلى هنا، جاء والدا أمها وبهذا انتهت دورة استغرقت خمسين عاماً من الوحدة والتعاسة.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تفكر في هذه الدورة الحزينة. ألهذا اندفعت إلى دافْينبورت هول وأصرّت على البقاء هنا؟.. وهل انتهى كل شيء الآن؟ أم ما زال هناك المزيد؟.. وكانت ريبيل متلهفة إلى المزيد.

رفعت رأسها عن زجاج النافذة بعنف حين سمعت الباب يفتح. كانت الغرفة مظلمة تقريباً، ولكنهما لم يكونا بحاجة إلى ضوء صناعي ليرى الواحد منهما الآخر. قال برقة:

ـ خطر لي أنك هنا.

أخذ قلبها يخفق بقوة ولم تعرف بما تجيب. بدا وكأن حاجتها إليه جعلته يأتي. لم يشعل الضوء، وعندما تقدم نحوها ببطء، تمنّت لو يبقى معها على الدوام.

جلس على الطرف الآخر من الأريكة. كان وجهه في الظل لكنه ملتفت إليها. قال بهدوء:

ـ أريد أن تعلمي أنني كنت جاهلاً بأن هناك علاقة بين أمك وآل بايرد، لم يلمّح مالكولم مسبقاً إلى هذا الأمر، ولم يكن لديّ فكرة عما كان سيحدث، يا ريبيل. أنا آسف لأنني كنت منشغلاً بأفكاري فلم أتنبّه إلى أنه سيحدث في الاجتماع أكثر مما كنت أتوقع.

ـ ليس هناك ما عليك أن تعتذر عنه يا هاغ.

ـ ولكنك أصبت بصفعة قوية.. وأنا المسؤول عن ذلك!

ـ المعروف أن صفعة قوية تنبه الإنسان من الغيبوبة!

ـ لو حدث ذلك لهذه الغاية، لكنت هنأت نفسي، ولكن حقيقة الأمر هي أنني كنت أثأر لنفسي، وهذا ما لا أفخر به.

جعل هذا الندم ريبيل تتجاوز غضبها، فقالت برقة:

ـ لا عليك يا هاغ، كانت الصدمة مفيدة، وأنا شاكرة لك أن جعلتني أواجه ما أعظ به الآخرين.. وإلا...

وتنهدت بعمق لتخفف من التوتر في صدرها.

ـ كان المفروض أن تعودي إليهما، يا ريبيل. فليس من عادتك أن تديري ظهرك إلى الناس.

هزت رأسها: «لا أدري! خلت أنني أعرف نفسي، ولكن الأمور لم تعد واضحة أمامي».

ـ يبدو أنك تكبتين أشياء كثيرة في نفسك من شأنها أن تؤلم مالكولم وروزلين. ليس هناك ما تلومين نفسك عليه، يا ريبيل. فقد

كان تصرفك معهما غاية في الرقة.

وسكت لحظة عاد بعدها يقول برقة: «إذا كان هناك ما يمكنني فعله لأجلك...»

أغمضت ريبيل عينيها... يستطيع أن يفعل الكثير لأجلها، ولكن ليس بإمكانها أن تطلب. عليه أن يبادر من تلقاء ذاته.

قالت بفتور: «سأضع حلاً لأموري عاجلاً أم آجلاً».

تألمت وهي تراه يستعد للخروج وكانت مرهفة الآذان لكل حركة تصدر عنه، وساد الصمت. لم يتحرك، وأخيراً عاد يقول بصوت مجهد شديد الانخفاض:

ـ تلك الاتفاقية التي عقدناها، يا ريبيل...

هوى قلبها. سيطلب منها الرحيل، ولِمَ لا؟ لقد انتهت مهمتها هنا... أو، على الأقل، عرف طريق الصواب وتقبله. ولم يعد أمامها الكثير على كل حال.

ـ أرجو أن تتغاضي عن... الطريقة التي تصرفت بها وعما طلبته منك عصر هذا اليوم. أطمئنك إلى أنه لن يتكرر...

وسمعته يجذب نفساً عميقاً:

ـ هل لك أن تبقي معنا أكثر من الأسبوع الذي اتفقنا عليه؟

فتحت ريبيل عينيها بدهشة كبيرة، وأخذ قلبها يخفق.

ـ هل تريد مني أن أبقى يا هاغ؟

سألته هامسة وقد كاد صوتها يختفي.

ـ نعم.

قال ذلك بسرعة ثم أضاف:

ـ قد يكون آل بايرد أحق بوقتك مني، ولا بد أن تفعلي ما ترينه صواباً. لكنني سأبذل جهدي لمساعدتك، بإمكان جدّيك أن يحلاً

ضيوفاً عندنا، إذا شئت.

إنه حقاً يريد أن تبقى. هذا واضح جداً، لكن سبب رغبته في ذلك غير واضح تماماً... أذلك من أجل سيليستي؟ سحبت نفساً عميقاً ثم دخلت في الموضوع:

ـ لا يمكنك أن تترك سيليستي لي كلياً، يا هاغ. سأبقى هنا فترة، ولكن ليس بالشكل الذي يعفيك من أي مسؤولية... وإلا ازداد شعور سيليستي بالضياع حين أرحل. لهذا يجب أن تكون حاضراً من أجلها، وكلما طالت إقامتي هنا، ازدادت حاجتها إلى أن تعوّضها أنت عن رحيلي.

قال بجد بالغ: «سأتعاون معك بكل قوتي».

ـ وسأقدم كل ما أستطيع من العون. أنا أقدّر صعوبة ذلك بالنسبة إليك، يا هاغ. ذلك أن شعورك نحوها...

ـ لا. لن يكون الأمر صعباً.

وتنهد بعمق وهو يقف. ظنت أنه سيتركها، بعد أن تقدم بالاعتذار الذي اضطرّ إليه، وضمن موافقتها على البقاء للمساعدة بشأن سيليستي. مضت لحظات بدا فيها أنهما متقاربان في هذه الظلمة.

ومرة أخرى كانت مخطئة، فهو لم يخرج، بل سار إلى أحد المكاتب المدرسية القديمة، وأخذ يمرّ بأصابعه على تخرّشات غطائه، تماماً كما فعلت هي الليلة الماضية. ثم قال متذكراً بحزن:

ـ كان هذا مكتب أخي «جيوفري». كنا متحابين جداً ونحن أولاد. هو يكبرني بثمانية عشر شهراً فقط. كان يحب اللعب والحيوانات، والضحك...

بقيت ريبيل صامتة وقد أحست بحاجته إلى أن يتخلص من العبء الذي أثقل عقله وقلبه طويلاً. كان القيام بذلك أسهل في

الظلمة، وربما هذا هو الوقت والمكان المناسبين. ثم فوجئت وهي تسمعه يقول:

ـ سمحت هذه الليلة لسيليستي بأن يكون لها كلب خاص. لأول مرّة رأيت على وجهها ملامح من أخي... من الممكن... كانت كريستين تكذب في كل شيء.. نعم من الممكن أن تكون سيليستي ابنة جيوفري وهي كل ما بقي منه... سأصلح الأمور، يا ريبيل. ولن يكون هذا صعباً.

وتملكت ريبيل الإثارة. إذا كان هذا هو شعور هاغ فلن يكون ثمة مشكلة مع سيليستي، فلماذا يريدها أن تبقى؟ هل ذلك لتسهيل الأمور الشاذة بينه وبين ابنة أخيه، أم أن هناك سبباً شخصياً وراء طلبه منها البقاء؟

«يمكننا أن نحظى معاً بشيء ما...».

هذا ما قاله، وشعر به، عصر هذا اليوم. ومهما كان تفكيره أو شعوره الآن، فهو يريد مزيداً من الوقت معها.. ألا يعطيها هذا سبباً للأمل؟

استدار وجلس على حافة المكتب.

ـ لم أشكرك حتى الآن على كل ما قمت به نحو سيليستي. يبدو أنها تحفظ كل شيء تقولينه لها عن ظهر قلب.

ثمة سؤال في صوته، وكان عليها أن تُفهمه شيئاً مهماً:

ـ هذا لأنني أصغي إليها، يا هاغ، وأعطيها الجواب المناسب. الأوامر التسلّطية لا تثير في سيليستي سوى التمرد. إنها طفلة ذكية جداً. أعطها التوجيه، وسبباً له، عند ذلك تفعل الكثير من ذاتها. وهذا يمنحها حساً بالزهو لإنجازها الخاص. إن قليلاً من الاهتمام يجعلك على علاقة طيبة جداً معها.

ساد صمت طويل... وعندما تكلم أخيراً، قال بلهجة اشمئزاز من الذات:

ـ كنت على صواب يا ريبيل حين شبهتني بالغول.

قالت بهدوء: «لا يا هاغ! الغول لا يحاول».

نزل عن المكتب وأخذ يسير في أنحاء الغرفة كأنما تدفعه عفاريت.

ـ لم أحاول لأجل سيليستي وإنما لأجلك أنت. إنني أريدك، وإذا كان ذلك هو السبيل إليك...

وسكت، واشتد العنف في صوته:

ـ هل رأيت أي نوع من الرجال أنا؟ لا علاقة لذلك بالشرف أو الحق! لقد قتلت ضميري حين استولت عليَّ فكرة الانتقام من كريستين... (وتوقف عن السير) عليك أن تعرفي كل شيء عن كريستين لكي تفهمي ذلك. كريستين الملائكية الشهوانية الرائعة الجمال وذات القلب الأسود مثل الفحم!.

أرادت ريبيل أن تعلم، فقد كانت كريستين مفتاح كل هذه الظلمات في دافينبورت هول، ولكنها لم تسمح لنفسها بالسؤال، وإنما احتفظت بصمت عطوف، راجية من كل قلبها أن يخبرها هاغ بكل شيء.

لم يصدمها اعترافه، بل أثار فيها البهجة والرضا، فهو دليل على أن مشاعره نحوها هي بعمق مشاعرها نحوه. من المؤكد أن ثمة فرصة أمامها، هذا إذا أمكن تبديد ظلمات كريستين.

عاد يدور في أنحاء الغرفة، متململاً عنيفاً:

ـ إنني ألعن اليوم الذي أحضرتها فيه إلى هنا. لقد أعماني الافتتان بها فلم أستطع الصبر وأسرعت في تقديمها إلى أسرتي.. لم

أتصوّر أن في ذهن كريستين غرضاً آخر، وهو أن لا تدع شيئاً يمنعها من أن تصبح «اللايدي داڤينبورت». . . وبسرعة عجيبة سحرت أخي. وسرعان ما تزوجها حين أعلنت أنها حامل منه، ولكن ما إن أوقعته في الشرك، وضمنت اللقب، حتى جعلت حياته جحيماً لا يطاق، وجعلت منه شخصاً مختلفاً تماماً. لا أصدق أن موته كان مصادفة! لقد حذروه من المنحدرات الثلجية، وأظنه لم يكن، حينذاك، يهتم بشيء. وهكذا حلّق فوق تلك المنحدرات في لعبة نهائية مع المصير. وأتساءل إذا كان يتصور ما ستفعله كريستين من بعده؟!

ـ وماذا فعلت؟

ـ عادت الأرملة الحزينة إلى داڤينبورت هول. المشكلة الوحيدة هي أنه لم يعد لها الحق في الإقامة فيه. ولكن كريستين كان لديها حل جاهز.

أطلق ضحكة قصيرة قاسية ثم عاد إلى ذرع الغرفة وهو يقول بصوت يتفجر مرارة:

ـ في يوم جنازة أخي، بعد ساعات فقط من دفنه، جاءت إلى غرفتي لتخبرني بأن زواجها من جيوفري كان غلطة كبرى. أغراها بلقب «لايدي» وقد ندمت على ذلك من كل قلبها لأنها كانت وما تزال تحبني أنا. وحاولت أن تريني كم تحبني وترغب بي. . ولكني جررتها وهي ترفس وتصرخ، وهبطت بها السلم إلى الخارج حيث سيارتها السوداء، فألقيتها في داخلها وقلت لها أن تذهب إلى جهنم أو أي مكان آخر تحبه، شرط ألا تسوّد أبواب داڤينبورت هول مرة أخرى.

بعدما أفرغ هذه الشحنة من الغضب، عاد إليه بعض هدوئه، فتابع قائلاً: «ظن المحقق أن سبب الحادث المميت الحزن الذي

جعلها تقود سيارتها بمثل تلك السرعة الجنونية. والحقيقة أنه الهياج والحقد الأعمى. وربما كانت كريستين تلقي بالشتائم الفاحشة البذيئة عندما حدث الاصطدام. لكن الأموات لا يستطيعون الشهادة وكنت مطمئناً إلى أن كل شيء قد ذهب معها».

ولكن هذا لم يحدث، لأن حقد هاغ على كريستين انصبّ على ابنتها سيليستي وجعله يتصورها غولة متوحشة! عندما مرت هذه الفكرة في رأس ريبيل، انتقل هاغ من الماضي إلى الحاضر، وأخذ يعبّر عن ندمه:

ـ لقد كنت أعمى بالنسبة إلى سيليستي كما كنت بالنسبة إلى كريستين من قبل، إذ كلما نظرت إلى ذلك الوجه الملائكي الصغير كنت أرى فيه وجه أمها! . . . هذا بالإضافة إلى سلوكها المدمّر. . .

تنهد وهو يهز رأسه كأنه ينفض عنه الجنون الذي تملكه:

ـ ولكن عندما نظرت إليّ هذه الليلة، لم أر فيها كريستين، بل جيوفري. ما سمعته منك عن الطفلة اندفع إلى ذهني مهاجماً كل آرائي الخاطئة فيها. . وكان ذلك عندما. . .

ـ عندما حاولت، بصدق، التفاهم معها.

قال بكآبة: «نعم!»

ـ لا يهم متى أو كيف أو لماذا كان ذلك، يا هاغ. المهم فقط أنك لم تخذلها عندما بسطت يدها إليك.

بعد لحظات متوترة قال راجياً:

ـ هل يمكننا إقفال هذا الموضوع الآن، يا ريبيل؟

كان صادقاً في طلبه، فقالت بصدق مماثل:

ـ أتمنى لو مات تأثير كريستين معها يا هاغ. فإذا أمكنك الآن أن تجعل ذلك خلف ظهرك، فقد ربحت أكثر من نصف المعركة مع

سيليستي... والأمور في نظري تُقاس بحسن خواتمها.

ـ يا لقدرتك على الإقناع، يا ريبيل! ليت بإمكاني تبرئة نفسي من كل آثامي بمثل هذه السهولة.

وأطلق ضحكة أسى، فقالت بهدوء:

ـ ما فعلته مضى وانتهى، المهم ما تفعله من الآن فصاعداً. إعتاد أبواي القول: «غداً هو أول يوم من بقية حياتك» وهذا يدفعنا دوماً إلى التفكير بإيجابية.

«أول يوم من بقية حياتي»... أخذ يكرر هذا القول متأملاً، فشعرت ريبيل بجو من الهدوء والسكينة، وتخيلت أحجار داڤينبورت هول العتيقة تتنفس بارتياح، وظلام كريستين يتبدد.

خفق قلبها عندما تقدم هاغ نحوها. سار ببطء إلى الأريكة وانحنى ليلتقط حذاءها، ثم جلس واضعاً قدميها في حجره. ذهلت لتصرفه هذا، بحيث تسمرت مكانها، ولكن أصابعه أخذت تمرّ برفق على أصابع قدميها صاعدة إلى كاحليها، وهو يقول مازحاً:

ـ هل للملائكة أقدام حقاً؟!

سرت في أعماقها رجفة وقالت بارتباك: «ملائكة؟!»

ـ لست واثقاً ما أنت... ملاك انتقام أم ملاك رحمة؟

قال ذلك متأملاً وهو يدخل قدميها في الحذاء، فضحكت بخجل: «أؤكد لك أنني بشر».

وقف، وأمسك بيديها يوقفها على قدميها، إنما لم تكد تستطيع الوقوف بسبب الرجفة التي سرت في كيانها.

لو أخذها حينئذ بين ذراعيه، لما كانت قادرة على الابتعاد عنه... لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك. بل ترك إحدى يديها، وأمسك

باليد الأخرى ثم جرها معه إلى باب الغرفة قائلاً برقة:

ـ أظن حان الوقت لوضع نهاية لهذا اليوم، النوم يؤدي إلى الأحلام...

شعرت ريبيل فجأة بتعب شديد، وبدا لها السرير فكرة جيدة. غداً سيكون بداية جديدة لها في داڤينبورت هول، وربما سيكون بداية جديدة لأمور كثيرة.

كان في قبضته الحازمة على يدها مودة دافئة وصحبة صامتة وهما يهبطان السلم معاً. بدا متخلياً عن تحفظه الأرستقراطي وقد وضعه وراء ظهره مع كريستين والماضي المؤلم.

رافقها هاغ إلى باب غرفتها. وهناك فتح الباب، ثم التفت إليها مبتسماً وقال ممازحاً:

ـ لقد تعلمت درساً جيداً البارحة من سيليستي التي أخبرتني أن ريبيل تقول: علينا قبل النوم أن نتعانق ونقبل بعضنا بعضاً تحية المساء، وبهذا ننسى كل الأشياء السيئة التي حدثت قبل الذهاب إلى النوم.

ثم رفع يديها إلى كتفيه:

ـ عليك أن تضعي ذراعيك حول عنقي ثم أحتضنك بشدة.

ووضع ذراعيه حول خصرها وشدها إليه، فأحست بالدوار وتساءلت: هل هو قلبه الذي يخفق بهذا الشكل أم قلبها، أم قلباهما معاً في وحدة جنونية؟

ـ ثم أدعك خدي في شعرك هكذا...

غمرتها مشاعر لذيذة، وحين هم بمفارقتها أرادت أن تحتج، ولكنه عاجلها بوداع رقيق:

ـ تصبحين على خير، وشكراً... للمعجزة.

تمتم بذلك وهو يضع قبلة أخيرة على جبينها... ثم خلّص نفسه برفق من بين ذراعيها، مشيراً لها بدخول غرفتها، ثم أغلق الباب بينهما بحزم.

* * *

١٠ ـ أمس، اليوم، وغداً

لم تعرف ريبيل بماذا تفكر. هل كان ذلك العناق مجرد شكر؟ أم كان يعني أكثر؟ من المؤكد أن هاغ ما كان ليفعل كل هذا لمجرد أن يقول شكراً. ومع ذلك لم تشأ أن تذهب بعيداً في تساؤلها.

سأعرف ذلك غداً بشكل أفضل... بهذا أخذت تطمئن نفسها وهي تستعد للنوم... سيتضح كل شيء غداً، هذا إلى أنها في أعماقها، لم تكن تريد علاقة عاطفية مع هاغ.. إذا كان الأمر سيتوقف عند هذا الحد.

في الصباح التالي، تأخرت ريبيل في النوم، وعندما نزلت إلى غرفة الفطور، كان هاغ وسيليستي على المائدة. ما إن دخلت الغرفة حتى استقرت أعينهما عليها وقد تألق وجهاهما بابتسامة أشبه بأشعة الشمس المنسابة من النوافذ.

حلقت روح ريبيل عالياً: «صباح الخير!»

قالت ذلك والبهجة تتدفق من صوتها وتتألق في ابتسامتها.

رد هاغ التحية بترحيب دافئ زاد من غبطة ريبيل. بدا هذا الصباح مثل ملاكي الأراضي تماماً، بكنزته الخضراء العالية الياقة وسترته الإنكليزية التقليدية. قد تستطيع تفسير تسارع دقات قلبها كلما رأته.. ولكن، ما سبب هذا الوهن في ساقيها؟

قفزت سيليستي عن كرسيها نحو ريبيل وهي تتفجر إثارة:

www.elromancia.com

ـ سيكون لي كلب!

احتضنتها ريبيل: «آه! يا لها من بشارة!»

ـ اتصل عمي هاغ بالسير روجر وولكوت هذا الصباح لأن له خبرة بأنواع الكلاب. سأحصل على كلب صغير من نوع «يوركشاير» عمره ستة أسابيع فقط. سأذهب مع عمي لأختار الكلب بنفسي.

ـ يا له من صباح مثير!

كانت العينان الكبيرتان تتألقان سعادة:

ـ نعم! هل يمكنك القدوم معنا يا ريبيل؟ لست مضطرة للذهاب إلى العمل أليس كذلك؟ فأنت لا تلبسين ملابس العمل.

وكان هذا صحيحاً. البنطلون الجينز والكنزة الحمراء ليسا ثياب العمل.

على كل حال، لم تنتظر سيليستي جواباً، بل التفتت إلى عمها بلهفة:

ـ بإمكان ريبيل أن تأتي معنا، أليس كذلك يا عمي؟

كان واقفاً يمسك الكرسي لريبيل، فأجاب بنظرة دافئة:

ـ طبعاً، أهلاً بك يا ريبيل. ولكن يفضَّل أن ندعها تأكل أولاً يا سيليستي.

ضحكت الطفلة وانزلقت عن كرسيها لتمسك بيد ريبيل وتجرها نحو المائدة:

ـ هيا! لقد انتهينا تقريباً، كنت أريد أن أوقظك، لكن عمي قال إنك بحاجة إلى النوم بسبب سهركم الطويل مع الضيوف الليلة الماضية.

نظرت ريبيل إلى هاغ متفحصة وهي تجلس، ردت عليها العينان السوداوان بومضة مودة خفية خفق لها قلبها وأشاعت الدفء في

كيانها.

ابتسمت لها عينا الطفلة ببهجة:

ـ لقد جرّبت ما قلته لي يا ريبيل، وأصغى إليّ عمي هاغ.

قال هاغ بشيء من الهزل: «نعم. وأنا سريع التعلّم!»

قالت الصغيرة معتدّة بنفسها:

ـ وكذلك أنا، يا عمي.

شعرت ريبيل بأنها انحصرت بين الضحك والدموع، فكادت تختنق. كل شيء يسير على ما يرام هذا الصباح. بدا وكأن سلطة هاغ الباردة وتمرد سيليستي قد تبددا أثناء الليل. إذا كان هذا التطور الكبير هو مكافأة لها على جهودها فهي قانعة تماماً. على الأقل هذا ما حدثت نفسها به. لكنها تعلم أنها غير قانعة على الإطلاق.. لا في عقلها ولا في جسدها.

جاءت الخادمة، فطلبت ريبيل شاياً وخبزاً محمصاً، حتى الخادمة ابتسمت، وقد أصابتها عدوى الجو السعيد.

فكرت ريبيل في أنهم، الآن، أشبه بالأسرة. لكنها ما لبثت أن حذرت نفسها من المبالغة في تصوراتها.. إن سحر هذه اللحظة قد يكون مؤقتاً، ومن الجنون إطلاق العنان لمثل هذه التصورات، من الجنون تغذيتها.

قبلة تحية المساء.. قبلة الشكر.. قد لا يعنيان أكثر من ذلك. ما يتوجب عليها هو أن تضع الأساس لمستقبل العلاقة بين هاغ وابنة أخيه، لا أن تسعى لإشباع رغباتها. إنها ليست جزءاً من حياة هاغ وسيليستي، وإذا هي لم تحرص على تذكّر هذا، فستوقع نفسها في مشاكل عميقة. وأرغمت نفسها على القول:

ـ شكراً لدعوتكما. ليس عليّ أن أذهب إلى لندن، ولكن عليّ

القيام بكثير من الأعمال الكتابية، والاتصالات التليفونية. فإذا أنجزت كل هذه الأعمال هذا الصباح، بينما تختارا الكلب يا سيليستي، فسأكون متفرغة للاستمتاع معك عند عودتك إلى البيت.

اكتأب وجه الطفلة قليلاً، ثم عاد يشرق عندما أضافت ريبيل:

ـ يمكننا أن نأخذ الكلب للنزهة ونريه بيته الجديد.

التفتت الطفلة إلى عمها على الفور:

ـ علينا أن نشتري رسناً للكلب يا عمي، لا أريد أن يهرب كلبي ويضيع!

ـ سنشتري له رسناً وكل ما يحتاجه، يا سيليستي. والآن، ما دمنا لن ننتظر ريبيل، فلماذا لا تنبهين مدبرة المنزل إلى أننا سنحضر كلباً إلى البيت وبذلك تأمر له بالطعام المناسب؟

وسرعان ما انطلقت سيليستي خارجة كالسهم، أما هاغ فالتفت إلى ريبيل بابتسامة آسفة:

ـ لماذا يتملكني شعور بأنني ألقيت في غابة وليس ثمة من يحميني؟

قالت متمسكة بالمنطق:

ـ ولماذا أشارك في هذا المجد؟ إنها مبادرتك أنت، وإليك تعود نتائجها الطيبة.

رفع حاجبيه باللوم: «وماذا لو احتجت إلى مساعدة؟»

قالت بدهشة ساخرة:

ـ وما الخطأ طالما أنكما، أنت وسيليستي، سريعا التعلم؟

ضحك ناظراً في عينيها بسرور. فخفق قلبها وأدركت في قرارة نفسها أنها تحبه. إنها تريد أن يشاركها بقية حياتها فهو الشخص الذي طالما انتظرته، الشخص الذي سيكون شريكها في كل شيء، ووالد

أطفالها، ورأس أسرتها، والرجل الذي سيملك قلبها على الدوام.

واستحالت ضحكته إلى تقطيبة حائرة:

ـ هل ثمة خطب يا ريبيل؟

خرجت من ذهولها وقالت بابتسامة مرغمة:

ـ لا، لا أبداً، كنت فقط أفكر كم تبدو حسناً حين تضحك. حسن؟ يا لها من كلمة سخيفة فاترة!

ذلك أن هاغ حين يضحك يبدو أكثر رجال العالم جاذبية.

قال ذلك مازحاً:

ـ سأتذكر أن أضحك على الدوام، إذن. ريبيل، هؤلاء المساهمون في سباق المناطيد الذين جمعتهم لك أمس... أريدك أن تهتمي بهم، ولو عربون شكر مني للوقت الذي منحتنا إياه. وهذا مقبول، أليس كذلك؟

ـ عادة أكدح وحدي في سبيل مشاريعي، يا هاغ. إنها مسألة كبرياء ولا أشعر بالراحة إزاء الدعم والتشجيع.

نظر إليها بحدة: «وأنا لا أشعر بالراحة حين آخذ ولا أعطي!»

اشتبكت الكبرياء بالكبرياء، خالقة توتراً لا علاقة له بالعمل. فقدك كان الأمر شخصياً جداً، يتصل بجوهر شخصياتهم.. كانت ريبيل عصامية مستقلة، أما اللورد دافينبورت فتراثه هو التفضُّل وتوزيع الخدمات وليس تلقّيها.

ودخلت سيليستي الغرفة بسرعة، متألقة بالإثارة:

ـ لقد أخبرت السيدة تومكنز، يا عمي هاغ. هل يمكننا الذهاب الآن؟

ـ أجل!

ثم وقف وهو يلقي على ريبيل نظرة أخيرة:

ـ أرجو منك أن تفكري في الأمر. الأوراق ما زالت على مكتبي.

ـ لا بأس!

قالت ذلك كارهة، ثم التفتت تبتسم لسيليستي متمنية لها الأفضل في اختيار الكلب.

أمضت ريبيل الساعتين التاليتين في غرفتها، منجزة أعمالها الكتابية واتصالاتها التليفونية. كان من الصعب عليها التركيز على عملها. فكرة هاغ عن المساهمين كانت جيدة، لكنها ما زالت تشعر بعدم الراحة لأنها ترى ذلك أشبه بمن يدفعون له حسابه ويصرفونه من العمل.

قررت أخيراً النزول إلى المكتب ولو لإلقاء نظرة، لم تشأ أن تقبل الترتيبات التي وضعها. ولكن قد يكون في رفضها دليل على عدم الاحترام!

قابلتها مديرة المنزل على السلم.

ـ آه، ها أنت ذي، يا آنسة جايمس! طلبت الآنسة لاملي رؤيتك، وقد وضعها بروكس في غرفة الاستقبال.

ـ الآنسة لاملي؟ تراني؟

وقطبت جبينها، فابتسمت المرأة بدهاء:

ـ فهمت أن السير روجر وولكوت نصح اللورد داڤينبورت بشأن شراء كلب. وقد أحضرت الآنسة لاملي كتاباً يتحدث عن العناية بالكلاب من نوع «يوركشاير».

ـ آه! تعنين أنها تنتظر عودة اللورد داڤينبورت؟

ـ أظن ذلك، يا آنسة جايمس.

عبست ريبيل، فآخر من تريد سيليستي رؤيته هو سينتيا لاملي، وريبيل تتفق معها في هذا الشعور. على كل حال، إذا كانت الأفعى

الشقراء تريد رؤية هاغ، وهذا مؤكد تماماً، فإن ريبيل تعرف كيف تتخلص منها.

قالت مديرة المنزل متعاطفة ومتضامنة مع ريبيل:

ـ يمكنني القول إنك خرجت للنزهة في مكان ما.

تنهدت ريبيل: «شكراً، ولكن الأفضل أن أراها».

تنهدت مديرة المنزل بدورها:

ـ أرجو ألا تغضب اللايدي سيليستي لرؤية الآنسة لاملي.

ثم ابتسمت لريبيل باستحسان: «إنها ليست مثلك، يا آنسة جايمس، كل الخدم هنا لاحظوا مبلغ سعادة اللايدي سيليستي هذا الصباح، كطفلة طبيعية تماماً. قال بروكس إن تلك معجزة، معجزة رائعة، وكلنا نعلم أن هذا من صنعك».

ـ شكراً، يا سيدة تومكنز.

ـ أنا أؤمن بإعطاء كل ذي حق حقه، لكنني لا أظن أن أفلام التلفزيون الوثائقية تظهر الأستراليين على حقيقتهم. فنحن لم نجدك قاسية على الإطلاق، يا آنسة جايمس.

ضحكت ريبيل:

ـ آه! أنا صلبة في الحق أثناء القتال، وهذا يذكرني بأن الآنسة لاملي بالانتظار.

أومأت مديرة المنزل باستحسان: «في غرفة الاستقبال يا آنسة جايمس».

وترك هذا الحديث السريع انطباعاً قوياً في نفس ريبيل بأنه ليس لسينتيا لاملي أية شعبية بين خدم داڤينبورت هول. ومن المؤكد أن هاغ لن يفكر أبداً بالزواج بها... هذا غير ممكن!

شعرت ريبيل بوخز مؤلم عندما دخلت إلى غرفة الاستقبال ورأت

سينتيا لاملي تمرّ بيدها على تمثال برونزي وعليها سيماء التملك. بدا على الشقراء الأنيقة وكأنها في بيتها.

ثوبها الحريري الأبيض والليلكي كان فخماً وأنثوياً معاً، واللؤلؤ حول عنقها الرشيق وفي أذنيها، يظهرها كعارضة مجوهرات. زينة وجهها كاملة، وربما خرجت لتوها من صالون تزيين الشعر. نظرة التنازل التي رمقتها بها من عينيها الزرقاوين الباردتين متفحصة مظهرها، أشعرت ريبيل أنها في مظهر فوضوي.

وقفت متصلبة الجسم، وهي تقول لنفسها: ليس كل ما يلمع ذهباً... وسينتيا لاملي ما هي إلا فتاة سطحية لا تساوي شيئاً. وإذا لم يستطع هاغ أن يرى ذلك، فهو يستحق مصيراً أسوأ من الموت!

اتخذت سينتيا على الفور دور المضيفة، فدعت ريبيل إلى الجلوس معها في طرف الغرفة حيث تطل النوافذ على البحيرة المزينة. بعد حديث قصير مهذب لا يخلو من النفاق، جارتها ريبيل فيه كلمة كلمة، وصلت الشقراء الأفعى أخيراً إلى ما تهدف إليه:

ـ أظن أن هاغ يخاطر جداً بإعطاء سيليستي كلباً، فقد تعذبه حتى الموت!

قالت ريبيل تصحح لها كلامها:

ـ الأرجح أنها ستحبه حتى الموت!

أطلقت سينتيا ضحكة ساخرة رنانة:

ـ إنك لا تفهمين الأمر، يا آنسة جايمس. سيليستي هي ابنة كريستين. أنت لا تعرفين شيئاً عن كريستين، أليس كذلك؟ كان هاغ مفتوناً تماماً بكريستين قبل أن تتزوج أخاه.. كانت رائعة الجمال، عارضة أزياء شديدة الطموح. ما كنت لتصدقي أنها خرجت من أحياء لبقربول القذرة الفقيرة. ولكن تحت مظهرها الكاذب البرّاق، كان

لديها نفسية المجارير، إنها أكثر النساء شراً وقسوة. وقد ورثت سيليستي كل ذلك.. ليس في الشكل فقط بل في المزايا أيضاً، ولعلك تفهمين تلك المزايا، لأنك أنت أيضاً آتية من تلك الخلفية المحرومة!

اقشعرّ بدن ريبيل وانتصب شعر رأسها:

ـ لا أعتبر نفسي محرومة على الإطلاق، يا آنسة لاملي. أنا، في الواقع، أعتبر نفسي محظوظة أكثر من معظم الناس.

منحتها الشقراء ابتسامة استعلاء أخرى:

ـ طبعاً، مع ذلك الخليط من الناس، أسرتك بالتبني! أنا لم أقصد سوى ذلك، حسناً... قلت بنفسك إنك لا تعرفين من يكون أبوك. وأمك المسكينة التي هجرها بذلك الشكل، تبدو بلا أسرة وإلا لما تبنوك. النشأة مهمة جداً في قضايا الزواج!

قالت ريبيل بخشونة:

ـ قد يكون هذا مهماً بالنسبة إليك، يا آنسة لاملي، وليس إليّ.

رنّت الضحكة الرنانة مرة أخرى:

ـ نسيت أنك أسترالية. لا أظن أن أحداً في استراليا يهتم بمسألة النشأة والأسرة، لأن تلك البلاد كانت ملاذاً للمجرمين الهاربين. لكنني أشك في أن رجلاً مثل هاغ يفكر بهذا الشكل، خصوصاً بعد تجربته مع كريستين.

وسكتت تشحذ مخالبها للجولة التالية. لم تقل ريبيل شيئاً، فلا فائدة من مناقشة امرأة متحاملة ضيقة العقل مثل سينتيا.

استأنفت سينتيا هجومها:

ـ هنا في انكلترا ثبت لنا مرة بعد مرة أنه من الأفضل أن يحقق الشخص طموحاته في طبقته. إنها مسألة مستويات متأصلة ونماذج

مقبولة من السلوك، وقد فشلت كريستين في تجربتها، ذلك لأنها ولدت ونشأت عامية، غير نبيلة، وبما أن هاغ شاهد زواج أخيه المشؤوم ونتيجته المأساوية، فهو لن يقع في نفس الخطأ، مهما كانت جاذبيتك، يا آنسة جايمس.

وتنقلت عيناها القاتلتان بين استدارات جسد ريبيل المثيرة:

ـ الجاذبية الجنسية ليست كل شيء. لقد كانت كريستين أكثر جاذبية منك، فهي مزيج من البراءة الملائكية والشهوة الدنيوية. لكن معظم الرجال ينخدعون بالمظاهر، وبعد أن يحصلوا على ما يريدون... حسناً، الجنس لا يدوم أبداً، أليس كذلك؟ إنه مجرد حدث يقع بين رجل وامرأة.

شعرت ريبيل بالتوتر، ورأت علائم التشفّي في عيني سينتيا، وشعرت نحوها بالكراهية. مع ذلك لم تستطع أن تزيل من تفكيرها احتمال أن يكون الجنس هو كل ما أراده هاغ منها أمس عندما ألح عليها بالسفر معه. كان يرغب فيها حينذاك، ولعله أراد منها أن تكون خليلته حتى يسأم منها. وربما طلب منها البقاء في منزله لأنه يريدها في سريره. وربما للغاية نفسها سيقترح أن يأتي معها إلى باريس لترتيب مسألة المشاركين في سباق المناطيد!

كانت ابتسامة سينتيا قد أصبحت جارحة وهي تقول:

ـ أشعر من واجبي أن أنبهك إلى أنك تضيعين وقتك هنا في دافينبورت هول، الواقع أنك فتاة عادية جداً، يا آنسة جايمس.

وإذا بصوت من الخلف يقول بصرامة:

ـ بالعكس، ريبيل ليست فقط غير عادية، وإنما خارقة، يا سينتيا.

تصلب جسم الشقراء وهي تلتفت لتواجه الرجل الذي قال ذلك.

لكن ريبيل لم تتحرك، لم تشأ أن تنظر إلى هاغ. كان في روحها قنوط مؤلم لم ترد أن يراه.

وتابع يقول باللهجة عينها:

ـ في الواقع، مزاياها تشعّ فوق كل النساء اللاتي عرفتهن، وأنا أعتبر نفسي محظوظاً لأنها شرفتني بقبولها ضيافتي في دافينبورت هول.

شرعت سينتيا في الوقوف وهي تقول بسرعة محاولة تهدئة غضبه:

ـ هاغ، كنت فقط أحاول أن أشرح لها...

قاطعها قائلاً: «لقد سمعت ما كنت تحاولين شرحه، يا سينتيا، ولا أريدك أبداً أن تتحدثي بالنيابة عني، مرة أخرى، ذلك أن مقاييسك ليست مقاييسي ولن تكون أبداً كذلك. ولكن، قبل أن تنشري ملاحظاتك الحمقاء في أماكن أخرى، دعيني أخبرك بأن جدّ ريبيل لأمها هو السير مالكولم بايرد. ومن المفروض أن يكون ماركيزاً كبيراً لو لم يتنازل عن اللقب».

قالت سينتيا مغمغمة باضطراب:

ـ ولكن.. ولكن كيف...

ـ الأمر بسيط جداً. والدة ريبيل هي ابنة مالكولم، وتراث ريبيل يعود مباشرة إلى ملوك اسكوتلندا. رغم أنها لا تهتم بذلك، وكذلك أنا. ولكن حاذري جداً مما ستقولينه في المستقبل عن ريبيل، يا سينتيا، لأنني أصبح عدواً سيئاً بالغ القسوة.

استدارت سينتيا إلى ريبيل تسألها: «لماذا لم تخبريني بذلك؟»

فقال هاغ بغضب بالغ:

ـ لأن هذا لا يهمها، يا سينتيا، كما أنك أطلت زيارتك أكثر مما

ينبغي.

ـ هاغ...

وأدارت إليه الشقراء وجهاً ذاهلاً. فقال يأمرها:

ـ أرجو أن تغادرينا الآن!

ـ ولكن...

ـ الآن!

كان غضبه شديداً بحيث لم تجرؤ سينتيا على المخاطرة بالاحتجاج، فألقت نظرة حاقدة أخيرة على ريبيل ثم رفعت رأسها عالياً وخرجت.

لم تنظر إليها ريبيل وهي تخرج. فقد داخلها شعور غريب وكأن لا علاقة لها بكل هذا المشهد، وكأنه ليس جزءاً من حياتها على الإطلاق. فهذه حياة هاغ، وحياة سينتيا. والأمور التي تعنيهما لا تعنيها.

شعرت بشيء من السرور لأن جدها تخلى عن لقبه، وهذا دليل على حبّه لوالدة أمها، ودليل على حزنه لفقد ابنته. إنهما، هو وجدتها، مثلها تماماً، يعتبران الحب فوق كل شيء آخر. عليها إذن أن تذهب لرؤيتهما قريباً جداً، تتصل بهما، تجعلهما جزءاً من أسرتها.

انغلق باب غرفة الاستقبال بعنف، لقد خرجت سينتيا.. على الأقل لن يتزوجها هاغ!

وجاءها صوت هاغ يضطرم غضباً:

ـ لماذا بقيت صامتة يا ريبيل؟!.. لماذا جعلت تلك الحقيرة تهزمك؟ لماذا لم تقاوميها؟

كان صوته يقترب شيئاً فشيئاً. فاستدارت ريبيل ببطء تواجهه،

فأخذ يتفحص بعينيه السوداوين وجهها الذي ما زال شاحباً. كانت المسافة بينهما لا تعدو خطوة أو اثنتين، ومع ذلك شعرت ريبيل وكأنها تراه من مسافة بعيدة، وعاد يسألها:

ـ لماذا؟ لقد قاومتني بأظافرك وأسنانك.. قاومت سيليستي، ومن غير الممكن أنك صدّقت ما قالته سينتيا.. فلماذا لم تقاوميها؟!

سألته باكتئاب: «وبماذا أقاومها، يا هاغ؟ لم أكن أعلم نسب جدي، وهذا لا يعني أنني كنت سأستعمله، لأنه لا يمتّ بصلة إلى شخصيتي الحاضرة. على أي حال..»

ومنحته ابتسامة صغيرة ساخرة: «لقد دافعت عني ببراعة.. شكراً لك!»

قطب جبينه وألقى عليها نظرة حادة:

ـ كان بإمكانك أن تخبريها بأنني عرضت عليك الزواج.

حدّقت ريبيل إليه وهي تطرف بعينيها، إلى أن تذكرت عرض الزواج الساخر، ذاك الذي ألقاه إليها عند تناولهما العشاء.

شعرت بغصة، وقالت بتردد وارتباك:

ـ لم تكن تعني ذلك!

ـ لقد صدقت كلامها إذن؟ صدقت أنني أريدك فقط في سرير؟!

شعرت وكأنه طعنها بهذه الكلمات. جاهدت لالتقاط أنفاسها، واغرورقت عيناها بالدموع.. لم تجد القوة لمواجهته، فهزت رأسها، ثم حاولت أن تمرّ بجانبه لتخرج. لكنه أمسك بها يديرها نحوه، وهو يعنّفها بصوت منخفض:

ـ ريبيل، انظري إليّ! تباً لأوهامك الرديئة!

ورفع يده يمسك بذقنها ويرغم وجهها على التحول إليه:

ـ كنت أتمنّى لو أستطيع أن أعني ذلك، يا ريبيل. ولكن بإمكان

أي رجل عاقل أن يطلب منك مشاركته جهنم التي كنت أتوقع أن أعيشها مع سيليستي؟ أن أراك تتحوّلين عني جريحة الفؤاد وقد استحال إيمانك بالحب إلى رماد مرّ؟ لم أرد أن أجرّك إلى ذلك.. هل تفهمين؟

ترك وجهها وأخذ يتخلل خصلات شعرها فوق أذنها: «وأمس، أمس رفضت الذهاب معي، ولم تذعني، وأنا.. نعم، أردت أن آخذ منك ما أستطيعه.. بعيداً عن سيليستي، بعيداً عن الشر الذي كنت أراه فيها. ولكن، يا ريبيل...»

وسحب نفساً عميقاً، واخترقت الرغبة في عينيه الدموع في عينيها: «لو كنت أستطيع أن أسألك الزواج ولو بأقل ما يمكن من الوعود، لما تأخرت. الليلة الماضية أملت أن تمنحيني فرصة للبدء من جديد. أردت التودد إليك، لأريك رجلاً مختلفاً.. رجلاً يمكنه الفوز بحبك.. ويمكنك أن تنجبي منه أطفالك وتشاركيه الحياة. هذا ما أردته، يا ريبيل.. وهذا ما أريده أكثر من أي شيء آخر في العالم».

أزالت صراحته العميقة المتألمة الشكوك من أذنها، فهمست تكاد لا تصدق أن شعوره مماثل لشعورها:

ـ وهذا ما أريده أنا أيضاً!

أغمض عينيه بشدة، وانقبضت يده التي في شعرها، ثم فتح عينيه قائلاً بصوت متهدّج:

ـ أرجوك.. قولي ذلك مرة أخرى!

رفعت يديها إلى كتفيه وهي تزداد اقتراباً منه، قائلة بابتسامة مرتجفة:

ـ أحبك!

فانقض عليها يرفعها في عناق محموم أفصح عن نشوته لسماع ما لم يجرؤ على أن يحلم بسماعه. وقال متأوهاً:

ـ وكيف يمكنك أن تحبيني؟ لا، لا تجيبي عن هذا! أقسم بأنني سأمضي بقية حياتي جاهداً للاحتفاظ بحبك.

وجذبها إليه مجدداً بعاطفة محمومة بدت وكأنها ستسلب منها الروح، وفاض كيانها ببهجة عارمة وهي تشعر بلمسات حبه.

لم يسمع أيهما قرع الباب الذي انفتح، ولا رأى الطفلة التي وقفت هناك تنظر إليهما باهتمام بالغ، وبين ذراعيها تستكين راضية كرة من الزغب، وأخيراً غلبها الفضول:

ـ عمي هاغ، هل هذا يعني ما تحدثنا عنه؟

ابتعد عن ريبيل كارهاً، وتنفس بصعوبة ثم نظر إلى الطفلة:

ـ ليس بعد، يا سيليستي. ما زال عليّ أن أجعل ريبيل تعيّن تاريخ الزفاف.

سألته بسرور لا يصدّق:

ـ وهل قالت إنها ستتزوجك؟

ـ تقريباً، وأنا أقوم بإقناعها.

قالت بإعجاب بالغ: «أتعلم يا عمي؟ أنت أذكى كثيراً مما كنت أظن».

ـ أنا سريع التعلم، يا سيليستي. والآن اذهبي والعبي مع كلبك إلى أن أنهي الأمر.

أغلقت الباب خلفها بسرور، فتنهد وهو ينظر إلى عيني ريبيل المتسائلتين:

ـ إذا كنت تظنين إنني أريدك فقط لأجل سيليستي، يا ريبيل غريفيث جايمس، فسأجرّك إلى غرفتي وأغسل ذهنك من كل هذه

الأفكار. لم تنفك سيليستي عن التلميح إلى التبني والأمهات، هذا الصباح... وإلى أنك رائعة الجمال.. وهي تريد أن تراك على الدوام في هذا المنزل، وكنّا متّفقين على كل هذه الأمور. لكن عليك أن تعلمي بأنني أول من فكر في ذلك.. وإذا كنت لا تصدقين كلامي...

وأخذ يرسل الحجج والبراهين رغم ثقته بقبولها. لم يجرّها إلى غرفته بالضبط.. ولكن بين الغزل والعواطف المحمومة، وافقت ريبيل على الزواج به بعد انتهاء سباق المناطيد. وعد بأنه سيدعو كل أعضاء أسرة جايمس إلى إنكلترا لحضور العرس، لأن التقاليد تحتم على لوردات داڤينبورت أن يتزوجوا في كنيسة القرية. وعندما خرجا أخيراً من غرفة الاستقبال، أخبرهما بروكس بابتسامة واسعة أن اللايدي سيليستي أخذت جروها الجديد وذهبت للنزهة في المزرعة، ثم فتح لهما الباب الأمامي فخرجا إلى شمس الظهيرة.

بدت الحياة لريبيل حافلة بالأماني. تأبطت ذراع هاغ وهبطا الدرجات وهي تقول:

ـ دعنا نسير في هذا الطريق المشجر إلى البوابة الحديدية.

ـ أظن أن سيليستي اتجهت إلى الناحية الأخرى.

ـ أعلم ولكنني أريد أن أتأكد من أن هذا الطريق ما زال هو نفسه..

نظر إليها مستفهماً.. ثم سار معها دون اعتراض، فتابعت تقول وهي ترفع بصرها إلى الأشجار العتيقة:

ـ ألم تشعر قط بانعدام الزمن في هذا المكان؟... لكأنَّ الماضي والحاضر والمستقبل كلها تومض حولنا، ثم تحضر جميعاً بطرفة عين!

ابتسم هاغ بدهشة: «إنها صورة شعرية رائعة!»

ـ نعم، أظنها كذلك.

لكنها حقيقة أيضاً! أمس، اليوم، وغداً... هذا الطريق المشجر يقود إليها كلها، مجدولة ببعضها البعض كغصون الشجر وأوراقه فوق الرؤوس. لم يمض سوى أيام قليلة على عبورها هذا الطريق لأول مرة، ولكن ما أكثر ما حدث أثناء تلك الأيام القليلة! وكيف لأحد أن يقيس المشاعر؟ إنها موجودة بصرف النظر عن أية حقيقة أخرى!

ـ يبدو لي أنني أقرأ أفكارك. كنت أشعر أحياناً بالكآبة لإحساسي بوطأة التاريخ في هذا المكان.. ثم أشعر أحياناً أخرى بشيء من الراحة حين أرى نفسي جزءاً من شيء أزلي.

أخذت ريبيل تفكر في أن أمها، ڤاليري غريفيث، سارت في هذا الطريق، ولا بد أنها كانت سعيدة هنا في داڤينبورت هول.. وهي أيضاً، ريبيل، ستكون سعيدة، كما تعهدت لأمها بصمت.

توقف هاغ وأخذها بين ذراعيه بحنان:

ـ ستستمر بنا الحياة، ولن أعود ضائعاً في هذا العالم بعد الآن؛ وذلك بسببك، يا ريبيل، كنا، نحن الإثنين، ضائعين.. أنا وسيليستي.. وكذلك كان جدّاك. كنا سنبقى كذلك لو لم تمنحينا قلبك. لقد ابتسم الحظ لنا جميعاً منذ اليوم الذي جئت فيه إلى داڤينبورت هول.

ـ لكنك لا تؤمن بالحظ!

قالت ذلك تذكره بقول سابق له. ابتسم وهو ينظر إلى المنزل الضخم البالغ من العمر مئات السنين:

ـ أظن أن هذا المنزل كان ينتظرك لتحييه مرة أخرى.

قالت بسعادة:

ـ سيكون فيه أولاد، وضحك كثير.

اشتدت ذراعه حولها: «أولادنا. وأيضاً أي طفل تائه ترينه بحاجة إلى مأوى، لدينا هنا غرف كثيرة، ويمكنك أن تحصلي على أسرة مهما تكن كبيرة، يا ربيبل».

ـ ألن تمانع في أي شيء؟

ـ لن أمانع في أي شيء تريدينه!

قال ذلك ببساطة دافئة، فازداد حبها لكرم نفسه.

ستكون تلك أسرتها الخاصة، بداية جديدة، أسرة تعود جذورها إلى ماض عريق وتمتد إلى مستقبل زاهر.

وما أجمل هذا الشعور. الشعور بالإنتماء!

***

www.romancia.com مـرومـانـسـيـة